الإصلاح في ضوء القرآن الكريم

د. محمد إبراهيم عبد الحليم محمد*

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله، وصحبه ومن والاه. أما بعد،،،

فإنَّ اللهﷻ خلق الإنسان وأسكنه الأرض، واستعمره فيها، وأمده بكل أسباب الحياة؛ المادية والروحية، وأمره تعالى بعبادته، وإفراده سبحانه بالوحدانية. وقد تعَّهد سبحانه البشرية بالأنبياء والمرسلين؛ ليبينوا لهم منهجهﷻ ويهدوهم إليه سبحانه، ويرشدوهم إلى طريق الإصلاح. وكان محمدﷺ آخر الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى؛ لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وقد استطاعﷺ -في فترة وجيزة- أن يصلح بالقرآن ما اعوج من سلوكيات الناس، وعاداتهم وطبائعهم.

لكنَّنا نشهد في الفترة الراهنة من حياة البشرية ردة إلى ملامح الجاهلية الضالة، وعقائدها المنحرفة، فالأوضاعَ الفاسدة، والأعراف الباطلة التي واجهها النَّبيﷺ لا تختلف كثيرًا عن الأعراف والقيم التي تعيشها البشرية في الفترة الراهنة من حياتها. والأمة اليوم في أمس الحاجة الى أن تغيَّر ملامح المجتمع الفاسد الذي تحياه، وأن تعيد إلى الحياة معالم المجتمع المؤمن الذي يريده الله. ولن يكون ذلك إلا من خلال القرآن الكريم؛ الذي أنزله الله تعالى مشتملاً علي مسائل العقيدة، وأحكام الشريعة، وجمع فيه من أمور العبادات والمعاملات، والأخلاقيات والسلوكيات، والعلاقات والواجبات، والحقوق والعقوبات ما يقَّوم به اعوجاج الناس، ويصلح شؤونهم، وينظم حياتهم، ويهذب سلوكهم. ولهذا فقد عزمت على أن أكتب بحثًا أتتناول فيه مفهوم الإصلاح، وضوابطه في القرآن الكريم، فالتمست العون من الله تعالى، وكتبت هذا البحث؛ الذي بيّنت

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر بني سويف

فيه مفهوم الإصلاح، ثم أشرت إلى ضرورة الإصلاح وأهميته في حياة الفرد والمجتمع، ثم بيّنت -بعد ذلك- مجالات الإصلاح وسماته، ثم أشرت إلى منهج القرآن الكريم ووسائله في الإصلاح. وقد تكون هذا البحث من مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة. تشتمل المقدمة على بيان أسباب اختيار الموضوع، وخطته. ويشتمل التمهيد على تعريف الإصلاح، وبيان مفهومه. ويشتمل المبحث الأول على: بيان ضرورة الإصلاح، وأهميته في ضوء القرآن الكريم. ويشتمل المبحث الثاني على: مجالات الإصلاح في ضوء القرآن الكريم. ويشتمل المبحث الثالث على: سمات الإصلاح في ضوء القرآن الكريم. ويشتمل المبحث الرابع على: ضوابط الإصلاح في ضوء القرآن الكريم. ويشتمل المبحث الخامس على: منهج القرآن الكريم في الإصلاح. ويشتمل المبحث السادس على: وسائل الإصلاح في القرآن الكريم. وتشتمل الخاتمة: على أهم النتائج والتوصيات المستخلصة من هذه الدراسة. أسأل الله تعالى التوفيق والسداد. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد : تعريف الإصلاح

الإصلاح في اللغة: الإصلاح: مصدر: أصلح يُصلِحُ، وهو مأخوذٌ من مادَّة (ص ل ح) التي تدلُّ على خلاف الفساد، يقال: صلح الشَّيء يَصلُح صلاحًا. قال ابن منظور: "الإصلاح: نقيضُ الإفسادِ، وأصلح الشَّيء بعد فسادِه: أقامه. وأصلحَ الدّابّة: أحسن إليها فصلحت. والصُّلح: تصالح القومُ بينهم. والصُّلح: السِّلم. وأصلح ما بينهم، وصالحهم مصالحةً، وصلاحًا"[1].

التعريف الاصطلاحي للإصلاح: عرَّفَ الألوسي الإصلاح بقوله: "الصلاح: عبارة عن الإتيان بما ينبغي، والاحتراز عما لا ينبغي"[2]. ويمكننا أن نقول: إنَّ الإصلاح: هو التغيير إلى استقامة الحال على ما تقتضيه الحكمة.

الإصلاح في العرف العام:

الإصلاح في العرف العام: هو عملية انتقال، وتحول من الحالة السيئة التي يعيش فيها الفرد والمجتمع إلى حالة منشودة من النمو والرقي والتقدم في جميع المجالات.

الإصلاح في الإسلام: وأما الإصلاح في الإسلام فهو يعني: تغيير الواقع المنحرف الذي تعيشه الأمم؛ فكريًا وثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا، فق المنهج القرآني.

المبحث الأول :ضرورة الإصلاح وأهميته

لقد بينَّ الله تعالى في القرآن الكريم أهميَّة الإصلاح وضرورته، كما بينَّ سبحانه الآثار المترتبة على عدم السعي للإصلاح، وإبقاء الحياة الفاسدة على ما هي عليه. وسوف أبين في هذا المبحث -إن شاء الله تعالى- ضرورة الإصلاح، وأهميته من خلال القرآن الكريم، وذلك من خلال العناصر التالية:

أولاً: الإصلاح ركيزة أساسية من ركائز دعوة الأنبياء والمرسلين:

ولهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]

ثانياً: اقتران الإصلاح بالأعمال الكريمة، والصفات العظيمة: فكثيراً ما قرن القرآن الكريم الصلاح بالأعمال الكريمة، والصفات العظيمة. ومن ذلك:

- اقتران الصلاح بالإيمان. فقلما نجد آية في القرآن تتحدث عن الإيمان دون ذكر الصلاح، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الإيمان مقدمة، ومدخل للصلاح، الإيمان أساس، والصلاح ثمرة، الإيمان مقدمة والصلاح نتيجة. قال تعالى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق]
- **اقتران الصلاح بالتقوى. قال تعالى:** ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف]
- **اقتران الصلاح بالتوبة. قال تعالى:** ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٣٩]

ثالثاً: الإصلاح وقاية من الهلاك:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود][٣]. **يقول صاحب المنار- في تفسير الآية-: " أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ رَبِّكَ، وَسُنَّتِهِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يُهْلِكَ الْأُمَمَ بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهَا فِي حَالِ كَوْنِ أَهْلِهَا مُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ، مُجْتَنِبِينَ لِلْفَسَادِ وَالظُّلْمِ، وَإِنَّمَا أَهْلَكَهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِيهَا"(٤).**

رابعاً: الإصلاح يحقق الحياة الطيبة، والجزاء الحسن:

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

خامساً: النجاح مرهون بالسعي نحو الإصلاح:

فلقد بينَّ القرآن الكريم أنَّ صلاح الحياة، ونجاح الأفكار مرهون بالسعي لتغيير الواقع المنحرف، وإحلال الحياة المستقيمة محله، وأنَّ الأمة إذا لم تعمل على تغيير واقعها فإنَّ الله تعالى يتركها هملاً. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] يقول الإمام القرطبي: **"أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير"(٥) فلا يغير سبحانه نعمة أو بؤسًا، ولا يغير عزًا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم. وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون. ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لا حقًا له في الزمان بالقياس إليهم.**

سادساً: الإصلاح يحقق المغفرة للعبد:

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء]

سابعاً: الإصلاح يدخل صاحبه الجنة: قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥]

ثامناً: الإصلاح ينفع الذرية:

ولهذا قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ [الكهف:٨٢]

تاسعاً: الإصلاح يمكّن عباد الله تعالى من إرث الأرض، ويحقق لهم الاستخلاف فيها: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]

عاشراً: عدم السعي للإصلاح سبب في لعنة الله وغضبه:

وكما بينَّ القرآن الكريم الآثار المترتبة على السعى للإصلاح، فكذلك بينَّ الآثار المترتبة على عدم السعي للإصلاح، وإبقاء الحياة المنحرفة على ما هي عليه. قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة] والأحاديث النبوية التي تؤيد هذا المعنى كثيرة، فقد أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قَالَ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: (فَاسِقُونَ) ثُمَّ قَالَ: « كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَىِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا »(٦).

وأخرج أبو داود والترمذي عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة] وَإِنِّي سَمِعْت النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ »(٧).

وَأخرج أبو داود وابن ماجه عن عَمْرٌو عَنْ هُشَيْمٍ قالَ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِى، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لاَ يُغَيِّرُوا إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ »(٨).

كما أشار النَّبي ﷺ إلى أنَّ العلماء والصالحين إذا تركوا الإصلاح، ولم يسعوا لتغيير الواقع المنحرف، فإنَّ العذاب يصيبهم، كما يصيب العصاة والمذنبين، فقد أخرج الإمام البخاري عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ

نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»(٩).

ولهذا قال سبحانه:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥] أخرج الإمام البخاري عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْها: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ « قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ» (١٠).

حادي عشر: منزلة الذين يرضون بالواقع المنحرف، ولا يسعون للإصلاح:

لقد ذمَّ القرآن الكريم الذين يرضون بالواقع المنحرف، ولا يسعون للإصلاح، وبينَّ أنَّهم مهملون، لا قيمة لهم ولا كرامة. قال تعالى﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم؛ أمة عاصية. وأمة تقف في وجه المعصية وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي، ولا تدفعه بعمل إيجابي، فلمَّا لم يُجدِ النصح، ولم تنفع العظة، حقت كلمة الله، وتحققت نذره. فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجاة من السوء. وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد. وأما الفرقة الثالثة فقد سكتت الآيات عنها، ربما تهويناً لشأنها، إذ أنَّها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال.

ثاني عشر: منزلة الذين يسعون للإصلاح:

لقد أكثر القرآن الكريم من مدح الذين يسعون للتغيير والإصلاح، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقر] ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الحج] فقد مدحت الآيات المهاجرين والمجاهدين الذين يسعون للتغيير والإصلاح بأموالهم وأنفسهم، وتلك أعلى مراتب الإصلاح.

ثالث عشر: الحث على السعي من أجل التغيير والإصلاح:

ولمَّا كان الإصلاح بهذا الأهمية، وتركه بهذه الخطورة، فإنَّ القرآن الكريم حثَّ الأمة على السعي من أجل الأصلاح. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران] كما بينَّ سبحانه أنَّ السعي من أجل الإصلاح من أبرز علامات الخيرية في هذه الأمـــة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]

ولهذا أمر النبيﷺ المسلمين جميعًا بالسعي للإصلاح، وتغيير الواقع المنحرف، فعن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال سمعت رسول اللهﷺ: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »(١١).

المبحث الثاني: مجالات الإصلاح

أنزل الله تعالى الإسلام على نبيهﷺ ليصلح الحياة من جميع جوانبها؛ العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويربط كل ذلك باللهﷻ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام] ومن ثمَّ فقد كان الحديث عن الإصلاح في القرآن متعدداً، وجاءت الآيات القرآنية تركز على الإصلاح من جميع أبعاده، وعلى جميع الأصعدة؛ الفردية والإجتماعية، وفي مختلف المجالات.

وعندما نستعرض آيات القرآن الكريم التي عُنيت بالإصلاح، نجد أنَّ الإصلاح القرآني تناول الأفراد، والمجتمعات. وأنَّ الإصلاح في القرآن لم يقتصر على جانب دون جانب. وهذا ما سأتحدث عنه في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

إصلاح الفرد:

الفرد هو اللبنة الأولى للمجتمعات، وهو الركيزة الأساسية للأمم. والمجتمع في حقيقته مجموعة من الأفراد، هؤلاء الأفراد هم الذين يرسمون ملامح المجتمع، فإن كانوا صالحين كان المجتمع صالحاً، وإن كانوا فاسدين كان المجتمع فاسداً. ومن هنا فقد اهتم القرآن الكريم بتغيير السلوكيات

الفاسدة والحياة المنحرفة لدى الأفراد من الناحية الاعتقادية والناحية السلوكية والأخلاقية، وذلك على النحو التالي.

أولاً: العودة إلى الفطرة الأصيلة:

بادئ ذي بدأ بينَّ القرآن الكريم أنَّ الفطرة الأصيلة للفرد هي التوحيد، وأنَّ ما يطرأ على الإنسان من الكفر والإلحاد إنَّما هو من عمل الشياطين. ومن ثمَّ أرشدهم إلى تغيير هذا الفكر المعوج، والسلوك المنحرف، بترك عبادة الأصنام، والدخول في دين الله تعالى. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] كما بينَّ النَّبيﷺ أن تحريف العقيدة ناتج عن تحريف البشر، فعن هُرَيْرَةَرضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُﷺ: «ما مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَرضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية [١٢].

ثانياً: المواءمة بين الجسد والروح:

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وأودع فيه جسداً وروحاً، وجعل لكل منهما حاجات ومتطلبات، وأمر النَّاس بالقصد فيهما، ولكنَّ البعض اعتقد أنَّ من كمال العبادة لله: الإعراض عن متع الحياة الدنيوية، دون النظر إلى حاجة الجسد، فصحح القرآن الكريم هذا الفكر، وبينَّ أنَّ العبادة لا تنافي التمتع بالحياة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة] ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]

وعندما جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا. فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللهﷺ فَقَالَ:«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١٣). ولهذا كان من دعاء النبيﷺ «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِى دِينِى الَّذِى هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِى، وَأَصْلِحْ لِى دُنْيَاىَ الَّتِى فِيهَا مَعَاشِى، وَأَصْلِحْ لِى آخِرَتِى الَّتِى فِيهَا مَعَادِى، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِى فِى كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِى مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(١٤).

ولمَّا ترَّهب بعض النصارى، وانقطعوا للعبادة، وحمَّلوا أنفسهم كلفاً زائدة عن العبادات التي كانت واجبة عليهم؛ من الخلوة واللباس الخشن، واعتزال النساء، والتعبد في الكهوف(١٥). أنكر القرآن ذلك، وبينَّ أنَّه من الابتداع الذي لم يأمر به سبحانه. قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧] يقول ابن كثير: "وقوله:(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) أي: ابتدعتها أمة النصارى (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) أي: ما شرعناها لهم، وإنَّما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله: (إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) فيه قولان، أحدهما: أنَّهم قصدوا بذلك رضوان الله، قال سعيد بن جبير، وقتادة: ما كتبنا عليهم ذلك إنَّما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنَّه قربة يقربهم إلى اللهﷻ"(١٦).

ثالثاً: دعوة القرآن إلى تغيير السلوكيات العامة للأفراد:

وكما اهتم القرآن الكريم بإصلاح العقيدة المعوجة في النفس، وتغيير النظرة إلى العبادة؛ التي تقوم على حرمان الإنسان نفسه متع الحياة، اهتم بتغيير السلوكيات المنحرفة للأفراد، ودعوتهم إلى التحلي بالفضائل. والنماذج على ذلك في القرآن الكريم عديدة، منها:

- الدعوة إلى ترك الفواحش. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران]

ولم يكتف القرآن الكريم بالدعوة إلى ترك الفواحش في الأفعال فقط، وإنَّما دعا الناس إلى ترك الفحش في الأقوال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [النور] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١]وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة]

- الحض على ترك الظلم: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النمل]
- الدعوة إلى التخلي عن النفاق، والتحلي بالإيمان. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء]
- الدعوة إلى ترك كل ما يؤذي الناس، ومن ذلك: تحريم الإفساد في الأرض، والدعوة إلى السعي للإصلاح. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة]

ومن ذلك أيضاً: الدعوة إلى ترك السرقة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة] عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَمَرَ فَقُطِعَتْ يَدُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا وَتَزَوَّجَتْ، وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١٧).

فالاستثناءات الواردة الآيات السابقة دعوة لتغيير السلوك المنحرف لدى لأفراد؛ وذلك بالخروج من الإفساد إلى الإصلاح، ومن الفحش إلى الطهر،

ومن المنكر إلى المعروف، ومن المعصية إلى الطاعة.

دعوة جامعة لإصلاح الأفراد:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

إصلاح المجتمع:

وكما اهتم القرآن الكريم بإصلاح السلوكيات الفاسدة لدى الأفراد من جميع الجوانب، فإنَّه اهتم كذلك بإصلاح الحياة الفاسدة للمجتمع الإنساني في جميع مجالات الحياة؛ العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما سوف أشير إليه في الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

إصلاح المجتمع من الناحية العقائدية، والغيبية:

لقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً واضحاً بتغيير مفهوم أهل الجاهلية في الأمور العقائدية والغيبية المنحرفة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: تغيير المفهوم الخاطئ في الذات الإلهية:

لقد انحرف الناس في عقيدتهم قبل البعثة النبوية انحرافاً جعلهم يشركون بالله الخالق، ويعبدون غيره سبحانه، ويصفونه سبحانه بما لا يليق به، فجاء القرآن ليصلح هذه العقيدة المنحرفة، ويحل محلها العقيدة الصحيحة التي أرسل الله تعالى بها رسله عليهم السلام، ويتجلى لنا منهج القرآن في ذلك فيما يأتي:

- النهي –أولاً- عن عبادة كل ما دون الله، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] وقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الذاريات: ٥١]
- الأمر بعبادته تعالى–ثانياً- قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢] وقوله: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة٢٥٦]

- ثم –ثالثاً– تصحيح العقائد المنحرفة، والمفهوم الخاطئ في الإله سبحانه. فلقد اعتقد الناس في الله تعالى اعتقاداً منحرفاً لا يليق بكماله ولا بجلاله، فصحح القرآن الكريم هذا الفهم المعوج، وقرر حقيقة الخالق سبحانه.

فنفى أن يكون لله تعالى شريكاً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]

كما نفى عنه اتخاذ الصاحبة والولد ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس] ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة]

وكذلك نفي القرآن كل نقص يُنسب إلى الخالق سبحانه، وأثبت له الكمال الإلهي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة:٦٤] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ﴾ [آل عمران:١٨١]

ثانياً: تغيير المفهوم الخاطئ في الملائكة:

لقد اعتقد العرب في الملائكة اعتقاداً خاطئاً، فوصفوهم بالأنوثة تارة، وقالوا: إنَّهم بنات الله تارة أخرى، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، وبينَّ أن ذلك أفك وكذب. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف] ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الصافات] ثم بينَّ سبحانه أنَّ

الملائكة خلق من مخلوقات الله، ليس لهم من الأمر شيء ، وأنَّهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ﴾ [الأنبياء]

ثالثاً: تغيير المفهوم الخاطئ في الجنِّ:

وذلك لأنَّ الجنَّ مقاعد في السماء؛ يتسمعون من خلالها بعض أخبارها، وكانوا يخبرون بذلك بعض الكهان ويزيدون عليها كذباً من عند أنفسهم، وكان الكهان يخبرون الناس بذلك. فاعتقد بعض الناس أنَّ الجن يعلمون الغيب، وأنَّ لديهم القدرة على جلب النفع، ودرء الضر، كما اعتقد البعض أنَّهم شركاء لله تعالى، فجاء القرآن الكريم ليغير هذا الفهم الخاطئ، ويصحح أفهام النَّاس المعوجة في هذا الشأن. فبينَّ الله تعالى:

- أنَّ الجنَّ ما هم إلا مجرد خلق من مخلوقات الله ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾ [الحجر]
- أنَّهم لا يعلمون من أمر الغيب شيئاً ﴿ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤ ﴾ [سبأ]
- أنَّهم لا يملكون نفعاً ولا ضراّ ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ ﴾ [الجن]
- أنَّهم لا يقدرون على دفع عذاب الله. ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ ﴾ [الحجر] ﴿ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ ﴾ [سبأ]
- كما أخبر سبحانه أنَّ الجن مكلفون، فمنهم الطائع ومنهم العاصي، فالطائعون منهم فائزون، والعصاة منهم في نار جهم خالدون، وقد أقر الجن بهذه الحقيقة عندما قالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ ﴾ [الجن]
- ثم –في النهاية– نفى القرآن ما ادعاه البعض من أنَّهم شركاء الله تعالى. ﴿

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام]

رابعاً: تغيير المفهوم الخاطئ في الرسالة:

لقد استبعد كثير من الناس أن يتخذ الله بشراً رسولاً، وقد سجل القرآن الكريم ذلك. قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس] وكان هذا المفهوم سائداً عند كثر من الخلق، فقد حكى القرآن عن قوم نوح عليه السلام أنَّهم قالوا: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون] وعن قوم عاد: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء] وعن قوم فرعون: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون] وحكى على لسان الكافرين أنَّهم قالوا جميعاً لرسلهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠] كما بينَّ القرآن الكريم أنَّ هذا الفهم كان عائقاً لكثير من الناس عن الإيمان، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء] فصحح القرآن هذا الفهم المعوج، وبينَّ أن الرسول إلى البشر لا يكون إلا من بني البشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام] ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان]

وكان العرب ينظرون إلى الرسالة على أنَّها مكانة اجتماعية لا ينالها إلا الوجهاء والأغنياء، فأنكر القرآن هذا الاعتقاد، وذمهم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] وبينَّ سبحانه أنَّ الرسالة عطية من الله تعالى لمن أراد من عباده. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]

خامساً: إصلاح الفهم المنحرف للعبادة والمناسك:

لقد أصاب فساد الجاهلية العبادة كما أصاب العقيدة، فالبيت الذي جعله الله تعالى مهداً للتوحيد، جعله المشركون وكراً للشرك، وملاؤا البيت بالأصنام

التي تُعبد من دون الله تعالى، فلمَّا فتح النبيﷺ مكة حطَّم تلك الأصنام، وهو يردد قول الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]

ولقد كان المشركون يبررون ما ألصقوه بالبيت من صنوف الشرك، وألوان الكفر بما يقومون به من من أعمال البر حول المسجد الحرام، بل إنَّهم كانوا يرون في ذلك عوضاً عن الإيمان بالله ورسوله، فأنكر القرآن الكريم عليهم ذلك، وبينَّ أنَّ هذه الأعمال لا تستوي عند الله مع الإيمان بالله ورسوله، وأنَّ أعمال الإيمان والجهاد أعظم درجة عنده سبحانه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

كما بينَّ القرآن الكريم أنَّ فساد العقيدة، وانحلال الفهم لا يتواءم مع عمارة المساجد، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[التوبة]

وقد كان للعرب طقوس خاصة في أداء المناسك والشعائر، هي في حقيقتها بعيدة من هدي السماء، ومن ذلك: أنَّهم كانوا يصفرون ويصفقون في الصلاة، ويعتقدون أنَّ ذلك من جنس الصلاة، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك بقوله:﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال:٣٥]

وكانوا يطوفون حول البيت عراة(١٨) ويقولون: لا نطيع الله في ثياب عصيناه فيها، فصحح القرآن هذا المفهوم، وأوجب الله تعالى ستر العورة، فقال تعالى:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] أخرج الإمام مسلم ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍﷺ قَالَ: « كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ -وَهِىَ عُرْيَانَةٌ- فَتَقُولُ: مَنْ يُعِيرُنِى تِطْوَافًا، تَجْعَلُهُ عَلَى

فَرْجِهَا، وَتَقُولُ: الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ، فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) » (١٩). وأخرج الشيخان عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَتَوُا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩]» (٢٠).

كما كانوا في الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم، فنهى القرآن المسلمين عن الأكل من تلك الذبائح، وبينَّ لهم أنَّ ذلك فسق يجب أن يتورع عنه المؤمن. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام]

وكان العرب يتصرفون في شرع الله سبحانه، فيحلون ويحرمون بأهوائهم، ومن ذلك أنَّهم كانوا يقدمون ويؤخرون في الأشهر الحرم، وفق أهوائهم، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة] يقول الحافظ ابن كثير: "هذا مما ذمَّ الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله، وتحريمهم ما أحل الله، فإنَّهم كان فيهم من القوة الغضَبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحَّرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة(٢١).

ومن انحراف الجاهلية في العبادة كذلك: ما ذكره الحافظ ابن كثير: "كان العرب في الجاهلية إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. وإن سقط منه شيء فما سُمّي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن. فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يردوه إلى ما جعلوه لله. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله. فسقى ما سُمّي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنَّهم يحَّرمونه لله، فقال الله عز وجل:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ ﴾ [الأنعام] "(٢٢).

الإصلاح السياسي:

لقد كان الناس في الجاهلية يعيشون حياة فاسدة في جميع مناحي الحياة، ولم تكن الحياة السياسية أحسن حالاً من غيرها، فقد شابها الفساد من جميع النواحي، فجاء القرآن الكريم ليصلح تلك الحياة الفاسدة، من جميع النواحي.

فأمَّا من حيث الحكم: فلقد كان الناس في الجاهلية يتحاكمون إلى الطواغيت، فأنكر القرآن الكريم ذلك، وبينَّ أنَّ الحكم لا يكون إلا لله سبحانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ ﴾ [النساء] وذمَّ سبحانه من يقدم حكم الجاهلية على حكمه تعالى، فقال سبحانه: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ [المائدة]

وإذا كان القرآن قد نهى عن اتخاذ معبود من دون الله، فقد نهى كذلك أن يُجعل لغير الله حُكماً. ولهذا فقد ذم سبحانه اليهود والنصارى الذين قدَّموا حكم علمائهم وأحبارهم على حكم الله. قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ ﴾ [التوبة] أخرج الإمام الترمذي والنسائي -بسند حسن- عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ - وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَب- قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ. قَالَ: « أَجَلْ. وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ»(٢٣). وفي رواية عند الطبراني: فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(٢٤).

ولهذا فقد رتب صالح عليه السلام النهي عن طاعة الزعماء الضالين على تقوى الله تعالى، وطاعته عليه السلام في الشرع الذي جاءهم به من عند الله تعالى. فقال لقومه-: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ ﴾

﴾ [الشعراء] "فكما أنَّ من أصل التوحيد إلا تتخذ في عبادتك إلهاً من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق، كذلك من أصل التوحيد إلا تجعل لغيره حكماً في سائر تصرفاتك، بل تعتقد إلا حكماً إلا له، وأنَّ بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله"(٢٥).

ومن فساد الحياة الساسية في الجاهلية كذلك:

أنَّ بعض بني الإنسان اعتقد حيناً من الدهر في الحكام اعتقادهم في الإله، فمنحوهم ما يمنحه الإنسان لله من السمع والطاعة، فجاء الإسلام ليصحح هذا الفكر المعوج، ويبينَّ أنَّ الحاكم ما هو إلا بشر، له ما للبشر وعليه ما على البشر، وأنَّ الطاعة إنَّما تكون لله سبحانه ولرسولهﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة:٩٢] ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]

ومن فساد الحياة الساسية في الجاهلية كذلك:

أنَّ الوحدة السياسة بين الشعوب كانت تقوم على العصبية الجاهلية، كما كان الظلم، وسيادة منطق القوة، والبقاء للأقوى هو الذي يسود الحياة السياسية عند العرب، وذلك واضح كل الوضوح في قول زهير بن أبي سلمى:

ومَن لم يزُد عن حوضِهِ بسلاحِهِ يُهدم، ومَن لا يظلم الناسَ يُظلمِ

فصحح القرآن ذلك، وبينَّ أنَّ الأصل الذي تقوم عليه وحدة الأمة هو التوحيد. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾) [المؤمنون] وأنَّ القرآن الكريم هو ضابط هذه الوحدة، فقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] وأنَّ التقوى هي أساسها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] وبذلك استطاع القرآن الكريم أن يحَّول القبائل المتناحرة والجماعات الغوغائية التي يُغِير بعضها على بعض، وتستحل الدم والحرمات، وتتفاخر بعدوانها واغتصابها للحقوق، إلى جماعات متضافرة منظمة تلتقي حول أهداف سامية، يحكم علاقاتها نظم وقواعد راقية من الحب والإحسان. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران:١٠٣] أخرج ابن أبي حاتم والإمام أحمد عَنْ عَلِيِّ بْنِ

حُسَيْنٍ: أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ أُنْزِلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وعليﷺ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر] قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لَفِيهِمْ أُنْزِلَتْ، فَفِي مَنْ نَزَلَتْ إِلاَّ فِيهِمْ؟ قُلْتُ: وَأَيُّ غِلٍّ هُوَ؟ قَالَ: غِلُّ الْجَاهِلِيَّةِ، إِنَّ بَنِي تَيْمٍ وَعَدِيٍّ وَبَنِي هَاشِمٍ كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا أَسْلَمَ هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ تَحَابُّوا، فَأَخَذَتْ أَبَا بَكْرٍ الْخَاصِرَةُ، فَجَعَلَ عَلِيٌّ يُسَخِّنُ يَدَهُ فَيُكَمِّدُ بِهَا خَاصِرَةَ أَبِي بَكْرٍ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ(٢٦).

الإصلاح الاجتماعي:

وكما شاب الفساد الحياة الدينية والسياسة لدي العرب فقد شاب كذلك الحياة الاجتماعية. وعندما نستعرض أشكال الفساد الاجتماعي وصوره في الجاهلية، فإنَّنا نلحظ أنَّ الفساد الاجتماعي قد تعلق بأمرين؛ الأول: فساد المجتمع، والثاني: فساد الأسرة، فجاء القرآن ليصلح هذا الفساد من جميع جوانبه، وبكافة أشكاله وصوره. وفي هذه السطور عرض لهذه القضية، وبيان موقف القرآن الكريم منها.

أولاً: الفساد المجتمعي:

لقد أفسدت الجاهلية قبل بعثة النَّبيﷺ المجتمع بكل أشكاله وجميع صوره، فلمَّا جاء النَّبيﷺ أصلح بالقرآن الكريم كل ما أفسدته الجاهلية في هذا الجانب وغيره. والنماذج على ذلك عديدة.

النموذج الأول: العصبية الجاهلية:

لقد كانت العصبية الجاهلية داء عضالاً، وكانت رزيلة مدمرة للمجتمع، فقد كانت أنفة عن الإذعان للحق، واعتزازاً بالإثم، وصل إلى حد التناصر بالباطل، والتعاون على الإثم والعدوان. وقد كان ذلك فاشياً في الجزيرة العربية، حتى تبرأ شاعرهم من قبيلته المسالمة، وتمنى قوماً فيهم هذه الحمية:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبـــوا شدوا الإغـارة فرساناً وركباناً

لا يسألون أخاهم حين يندبـهم في النائبات على ما قال برهاناً

ولذلك فقد كان من وسائل القرآن الكريم ومنهجه في الإصلاح ذم العصبية الجاهلية، وقتلها في نفوس الصحابةﷺ حتى سلمت القلوب لله، واستجابت لـــــشرعه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] كما حارب الإسلام كل علائق العصبية الجاهلية في النفوس، ومن ذلك قول النَّبيﷺ لأبي زرﷺ -حينما سب أحد الصحابةﷺ وعيره بأمه- « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ »(٢٧).

النموذج الثاني: الطبقيات والفوارق الاجتماعية:

لقد كانت الحياة الجاهلية تقوم على الطبقيات والفوارق الاجتماعية، بين الأعراق والأجناس، وذلك واضح كل الوضوح في أشعارهم ومفاخرهم، فهذا عمرو بن كلثوم يتباهى بقبيلته فيقول:

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ... ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

إذا بلغ الفطـــامَ لنا رضيعٌ ... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

فلم يعد لهذا المنطق وجود في المجتمع الإسلامي الذي أنشأه وربَّاه المصطفىﷺ وصنعه على عينه، بل صار الناس جميعًا سواسيةً كأسنان المشط، لا تفاضلَ ولا تمايز بينهم في أصل الخلقة أو لون البشرة أو اللغة. وميزان التفاضل بينهم هو الميزان الإلهي العظيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

ولقد كان نظام العبودية منتشراً في الجزيرة العربية، فعمل الإسلام على الحد من هذا النظام، فرغَّب المؤمنين أولاً في تحرير العبيد، ثم جعل عتق الرقبة إحدى الكفارت؛ مثل كفارة اليمن والظهار والقتل. فقضي بذلك على هذا النظام.

ولقد أراد الكفار أن يصبغوا الإسلام بصبغة الجاهلية، وعرضوا على النَّبيﷺ أن يطرد الفقراء والعبيد من مجلسه؛ ليجلسوا هم معه، ويسمعوا منه، فنهى الله تعالى نبيهﷺ عن ذلك، وبينَّ أنَّ هؤلاء الفقراء المؤمنين أعظم مكانة عند الله تعالى، وأعز منزلة من هؤلاء الكفرة الفجرة. أخرج الإمام مسلم عَنْ سَعْدٍ بن أبي وقاصﷺ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّﷺ: اطْرُدْ هَؤُلاَءِ، لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلاَلٌ وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِى نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ [الأنعام:٥٢] (٢٨). وأخرج الإمام أحمد عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍﷺ قَالَ: «مَرَّ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِﷺ

-وَعِنْدَهُ خَبَّابٌ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلاَلٌ، وَعَمَّارٌ- فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَرَضِيتَ بِهَؤُلاَءِ؟ فَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾[الأنعام:٥١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] » (٢٩).

النموذج الثالث: الثأثر:

لقد تجاوز العرب الحد في الثأر، فكانوا يقتلون أشرف القبيلة بالوضيع، ويقتلون الكثير بالواحد ويمثّلون بالموتى، فغيَّر القرآن هذا الأسلوب، وبينَّ أنَّ الواحد بالواحد، ولا يتجاوز عن القاتل إلى غيره، ولا يمثل بالموتى. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء] أخرج الترمذي -وحسنه- والحاكم وصححه- عن أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلاً، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ -وَفِيهِمْ حَمْزَةُ- فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَاهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[النحل] فَقَالَ رَجُلٌ: لاَ قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ غَيْرَ أَرْبَعَةٍ» (٣٠).

ثانياً: الفساد الأُسَرِيِّ:

وكما أفسدت الجاهلية قبل بعثة النَّبي ﷺ المجتمع، فقد أفسدت الأسرة كذلك، وقد تدخل القرآن كذلك لإصلاح هذا الفساد. والنماذج على ذلك عديدة أيضاً.

النموذج الأول: التبني:

لقد كان التبني مُعترفاً به في النظام الاجتماعي لدى العرب، وكان النَّبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة ﷺ قبل البعثة، فغيَّر القرآن ذلك الأمر -لأنَّه يزج في الأنساب ما ليس منها- وبينَّ أنَّ علاقة البنوة لا تكون إلا بين الولد ووالده. ولا يجوز أن يُنادى الإنسان ولا يُنسب إلا لأبيه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب:٥] ومن ثَمَّ أبطل القرآن التبني. وأولى الناس بتطبيق شرع الله تعالى هو رسول الله ﷺ الذي أبطل تبني زيداً ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب]

ومن الفساد الاجتماعي المتعلق بالتبني: أنَّ زوجة الابن من التبي كان لا يحق لها تتزوج أباه من التبني –على اعتقادهم- فغيَّر القرآن هذا الأمر، وأمر نبيهﷺ أن يتزوج زينب بنت جحش رضي الله عنها -وقد كانت زوجاً لزيد بن حارثـــــه- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

النموذج الثاني: ظلم المرأة وامتهانها:

وقد كان لهذا الظلم صور وأساليب عديدة، من ذلك:

- أنَّ الظهار كان في الجاهلية طلاقاً، ولا يجوز للزوج مراجعة زوجه، فغيَّر القرآن هذا الحكم الذي يؤدي إلى تفكيك روابط الأسر، وجعله ظهاراً، وبينَّ أن للزوج أن يراجع زوجه بعد الكفارة، فقال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المجادلة]
- ومن ذلك أيضاً: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي صالح: "قال كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، فأنزل: ﴿ وآتوا النساء صدقتهن نحلة ﴾ [النساء:٤] (٣١).
- ومن ذلك: أنَّهم كانوا إذا مات الرجل، فأهله أحق بزوجه من أهلها، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها، أخرج الإمام البخاري عَنِ ابْـــنِ عَبَّـــاسٍ﷛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء:١٩] قَالَ: « كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاؤُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاؤُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ» (٣٢).
- ومن ذلك أيضاً: أنَّ الرجل تكون عنده اليتيمة، فيتزوجها -طمعاً في مالها- من غير صداق. أخرج الإمام البخاري عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَتَرْغَبُونَ

أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[النساء١٢٧] قَالَتْ: «هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ -هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا- فَأَشْرَكَتْهُ فِي مَالِهِ -حَتَّى فِي الْعِذْقِ- فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلاً، فَيَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكَتْهُ، فَيَعْضُلَهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ» (٣٣).

- ومن ذلك أيضاً: أنَّهم كانوا يحَّرمون اللبن على إناثهم، ويشربه ذكرانهم. وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه، وكان ذلك للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تُركت فلم تُذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك كله، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام]

- ومن ذلك أيضاً: ما أخرجه الإمام مسلم عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِىِّ ﷺ النَّبِىَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٢٢] إِلَى آخِرِ الآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « اصْنَعُوا كُلَّ شَىْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ » فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا. فَلاَ نُجَامِعُهُنَّ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا، فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَأَرْسَلَ فِى آثَارِهِمَا، فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا» (٣٤).

النوذج الثالث: قتل الأولاد:

فقد كان من عادات الجاهلية المنحرفة: قتل البنات خشية العار، وقتل الأولاد مخافة الفقر والإملاق. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]، فنهاهم القرآن عن هذه العادة السيئة، التي تقضي على المجتمع، وبينَّ أنَّ هذا الفعل من وساوس الشيطان. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأنعام]

وأنَّ الإنسان مسؤل عن هذا الفعل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾ [التكوير] وتكفل سبحانه بالجميع، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ ﴾ [الإسراء]

النموذج الرابع: الانحراف في العلاقات الزوجية:

ومن ذلك: ما أخرجه الشيخان في تفسير قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣ ﴾ [البقرة] عن جابرﷺ قَالَ: «كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾» (٣٥).

النموذج الخامس: انتشار الزنا، وتعدد أشكاله:

لقد كان الزنا أمرًا شائعًا، مقننًا ومعترفًا به في المجتمع الجاهلي، فحرَّم الإسلام كل أشكال العلاقة المنحرفة بين الرجل والمرأة، وأبقى العلاقة الصحيحة التي ارتضاه الله تعالى. أخرج الإمام البخاري عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّﷺ أَخْبَرَتْهُ « أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ، فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ؛ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ، أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا، ثُمَّ يَنْكِحُهَا. وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لاِمْرَأَتِهِ -إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا-: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ، فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا -إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ- فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاِسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ. وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ -تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ- فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا -وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا- فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ، وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْم» (٣٦). وإلى غير

ذلك من القيم الفاسدة والأعراف الباطلة، والعادات المنحرفة التي كان الطريق لتغييرها الإيمان العميق الذي يملك أقطار النفوس، ويتغلغل في أعماق القلوب، فينتج عنه حتمًا الالتزام الخلقي والانضباط السلوكي.

الإصلاح الاقتصادي :

لقد كان النظام الاقصادي عند العرب أشبه ما يكون بالنظام الطبقي، فالثروة مكدسة في أيدي مجموعة قليلة من النَّاس، والسواد الأعظم من الفقراء والعبيد. ومن ثمَّ تناول الإصلاح القرآني الأوضاع الاقتصادية الفاسدة، كما تناول الأوضاع السياسية والاجتماعية المنحرفة. وقد كان للقرآن منهجه الفريد في الإصلاح الاقتصاي كما هو فريد في في شتى المجالات، وويتجلى لنا ذلك على النحو التالي:

أولاً: الحرص على توزيع الثروة على أفرد المجتمع، وألا يثتأثر بها الأقوياء. وقد نهج القرآن الكريم في ذلك المنهج التالي:

تحريم المرباع:

من الصور المنحرفة للنظام الاقصادي لدى العرب أنَّهم كانوا إذا غنموا في الحرب غنيمة، أخذ رئيس القبيلة الربع منَّها لنفسه بغير شرع ولا دين –وكان يُعرف ذلك عندهم بالمرباع- ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان يصطفي منها لنفسه ما شاء، كما كان يتحكم بعد ذلك في أي شي أراد، وكان ما شذ منها، وما فضل من متاع فهو له. وفي ذلك يقول شاعرهم:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ويقول آخر:

منا الذي ربع الجيوش لصلبه عشرون وهو يعد في الأحياء

ولم يكن للضعفاء في هذه الأموال نصيب، فأصلح القرآن هذا النظام الجائر، وقسَّم الغيمة والفيئ بالعدل، وجعل لضعاف النَّاس فيها نصيباً. قال تعالى في شأن الغنيمة: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال:٤١] وقال في شأن الفيء: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

﴿ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر أي: جعلنا هذه المصارف؛ ليكون المال متداولاً بين النَّاس، ولا يكون قاصراً على الأقوياء الأغنياء.

تحريم الربا:

لقد كان النظام الاقتصادي عند العرب يقوم على الربا؛ الذي لا يزيد الأغنياء إلا ثراء، ولا يزيد الفقراء إلا فقراً، فكانوا يتابعيون إلى الأجل، فإذا حل الأجل زادوا عليهم، وزادوا في الأجل، فحرَّم الإسلام ذلك النوع من التعامل، الذي يقوم على أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٣٠﴾ [آل عمران] كما شدد القرآن على أمر الربا بكافة أشكاله، فقال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة] وتوعَّد المرابين بحرب من الله ورسوله إذا لم يكفوا عما هم فيه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ [البقرة] وساق سبحانه مثال المرابي في أقبح صورة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة:٢٧٥]

وإذا كان الإسلام حرمَّ الربا، كوسيلة فاسدة لجمع المال، فإنَّه أبقى على البيع، والذي هو وسيلة كريمة لجمع المال. قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقـــرة:٢٧٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩] وبذلك ندرك أنَّ الإسلام عندما حرَّم الربا، فإنَّه أوجد بدائل للرزق والكسب، ووضع الحلول التي تكفل للجميع الحياة الكريمة، والتي تجعل أبناء المجتمع جميعاً يعيشون فشفي رغد من العيش.

بيان أنصبة الميراث، وفروضه:

لقد كان الميراث في الجاهلية يقوم على الفساد الاجتماعي، فكان العرب لا يُوَرِثون البنات ولا الصغار، فحرَّم القرآن الكريم ذلك الأمر، الذي يحرم أولي الأرحام حقهم في أهليهم، وأنزل الله تعالى آيات الميراث، التي تعطي كل ذي حق حقه. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ‌ﷺ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِابْنَتَيْ سَعْدٍ إِلَى النَّبِيِّ‌ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدٍ -قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ-

وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ جَمِيعَ مَا تَرَكَ أَبُوهُمَا، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لاَ تُنْكَحُ إِلاَّ عَلَى مَالِهَا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِﷺ حَتَّى أُنْزِلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِﷺ أَخَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ: «أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ ثُلُثَيْ مَالِهِ، وَأَعْطِ امْرَأَتَهُ الثُّمُنَ، وَخُذْ أَنْتَ مَا بَقِيَ» (٣٧) .

تحريم المعاملات التي تُلحق الضرر بالناس:

لقد أقام الإسلام النظام الاقتصادي على العفة والطهارة، ومن ثمَّ فإنَّه حرمَّ كل ما كان يقوم به أهل الجاهلية من المعاملات التي تُلحق الضرر بالناس؛ وذلك مثل الاحتكار، والاستغلال، وبخس الناس حقهم. قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين] وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦ ﴾ [هود]

ثانياً: الحث على السعي لأسباب الكسب:

ومن منهج القرآن الإصلاحي في الجانب الاقتصادي: أنّه حثَّ على السعي لأسباب الكسب والرزق، فرغَّب في العمل، الذي هو ركيزة الاقتصاد، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥ ﴾ [الملك] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٦٧] ونهى المؤمنين عن الانقطاع للعبادة، وأمرهم بالسعي للعمل بعد الفراغ من أداء العبادت، فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠] وبينَّ أنَّ أنبياء الله تعالى كانوا يكتسبون من عمل أيديهم، فقال الله تعالى في حق نوح عليه السلام: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ [هود:٣٨] وقال في حق داود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء:٨٠] وفي الحديث عن أسعد الخلقﷺ « وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» (٣٨) .

ومن حرص الإسلام على سعي المسلم للرزق، أنَّه أباح الكسب في أيام الحج، ما لم يؤَّثر ذلك على أداء المناسك. فالصحابةرضي الله عنهم كانوا يتحرجون من البيع والشراء في أيام الحج، فأُبيح لهم ذلك. أخرج الإمام البخاري عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمِجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ فَكَأَنَّهُمْ تَأَثَّمُوا، فِيهِ فَنَزَلَتْ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» (٣٩).

ثالثاً: إباحة الملكية الفردية:

لا غضاضة في النظام الإسلامي من الملكية الفردية، طالماً أنَّ الإنسان يجمع المال من الحلال، وينفقه في الحلال، ولا ينسى حق الفقراء في ذلك. فالملكية الفردية مُعترف بها في والإسلام؛ لأنَّها ركيزة من ركائز الاقتصاد؛ ومن ثمَّ فقد رغبَّ فيها الشرع الحنيف، وحثَّ عليها، وقد وُجدت نماذج من هذا القبيل في الرعيل الأول من الصحابة ﷺ؛ من أمثال عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة الأنصاري وغيرهم.

رابعاً: الاقتصاد في النفقة، وعدم الإسراف:

ومن منهج القرآن في الإصلاح الاقتصادي كذلك: الحث على الاقتصاد في النفقة، وعدم الإسراف. وقد تناول القرآن هذه المسألة من جهات عديدة، فهنى سبحانه –أولاً- عن الإسراف بقوله: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف] ثم مدح الذين لا ينفقون إلا وفق ما تقتضيه الحاجة، وجعل تلك الصفة من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] ثم ذمَّ المبذرين، وجعلهم إخواناً للشياطين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء] ثم بينَّ سبحانه عاقبة الإسراف، وشبه المذر بالدابة التي تقف عاجزة لا تستطيع الحركة في الطريق، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

خامساً: مراعاة حاجة الفقراء والضعفاء:

ولمَّا كان الإسلام دنياً إنسانياً بالدرجة الأولى، فإنَّه لم يغفل حق الضعفاء في النظام الاقتصادي؛ ولذلك فرض الله تعالى الزكاة على الأغنياء، وجعلها حقاً للفقراء، كما حضَّ على الصدقة، وبينّ فضلها وثوابها ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾[البقرة] كما بينَّ أنَّ الزكاة تجلب الزيادة في المال، وأما الربا فإنه سبب لهلاكه، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] كما بينَّ أن رضا الله مقترن بالنفقة في سبيله، فقال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران:٩٢]

بذلك يأمن الأغنياء من حقد الفقراء وحسدهم، كما يأمن المجتمع شرهم؛ وبذلك نضمن استقرار المجتمع؛ لأنَّ الفقير والمحتاج عندما يجد أسباب الحياة عن طريق الصدقة، فإنَّه يتعفف عن السرقة وغيرها من أسباب الكسب غير المشروع. وبذلك يكون النظام الاقصادي ركيزة للإصلاح الاجتماعي.

ولا يقال إنَّ الزكاة التي فرضها الإسلام دعوة للبطالة والكسل، وأكل لأموال النَّاس بغير حق؛ لأنَّ الزكاة في حقيقة أمرها إنَّما هي شعور القادر على الكسب بالضعيف الذي لا يستطيع الكسب، فهي نوع من التكافل بين أفرد المجتمع الواحد. والإسلام عندما فرض الزكاة حثَّ على السعي لأسباب الكسب والرزق، ورغَّب في العمل، أخرج الإمام البخاري عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ، أَوْ مَنَعُوهُ» (٤٠). كما بينَّ الإسلام أن المنفق المعطي خير من الآخذ، وأنَّ الاستعفاف للمرأ أكرم عند الله، وعند البشر. عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ» (٤١). فالزكاة إنَّما ضرورة اجتماعية للعاجز عن الكسب فحسب. وأما من استطاع الكسب، وطلب الصدقة بالمسألة فإنَّها تكون ذلة ومهانة في حقه.

سادساً: حث المسلمين على البحث عن الحلول الاقتصادية سيما وقت الشدة والعسرة: فلم يغفل القرآن الكريم البحث عن الحلول الاقتصادية وقت الشدة والعسرة، فساق الله تعالى قصة يوسف عليه السلام واعتبرها نموذجاً من نماذج الحلول الاقتصادية التي يجب على المجتمع أن يسعى لها إذا نزلت بالأمة شدة أو عسرة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وبهذا ندرك أنَّ الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود. يقيمه على أساس أنَّ الله -سبحانه- هو خالق هذا الكون. وأنَّه استخلف الإنسان في هذه الأرض، ومكنَّه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات، ومن قوى وطاقات، على عهد منه وشرط. ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى، يصنع فيه ما يشاء كيف شاء. وإنَّما استخلفه فيه في إطار من الحدود الواضحة. استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله، وحسب شريعته. فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قُدر عليه رزقه. مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته، واستعداده وفيما يسره الله له، فلا يكون أحدهم كلّا على أخيه أو على المجتمع وهو قادر الكسب والعمل.

كما شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال، ويتجنبوا الإسرف فيما ينفقون من رزق الله الذي أعطاهم، وفيما يستمتعون به من الطيبات التي أحلها لهم. ومن ثمَّ تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال. وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة. وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين، ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد، ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق. وكتب عليهم الطهارة في النية والعمل، والنظافة في الوسيلة والغاية، وفرض عليهم قيوداً في تنمية المال لا تجعلهم يسلكون إليها سبلاً تؤذي ضمير الفرد وخلقه، أو تؤذي حياة الجماعة وكيانها.

المبحث الثالث : سمات الإصلاح وخصائصه

عندما نتأمل الآيات التي تعرضَّت للإصلاح في القرآن الكريم، فإنَّنا نلحظ أنَّ الإصلاح في القرآن الكريم اتسم بسمات ثلاث:

السمة الأولى: أنَّ الإصلاح في القرآن لم يكن قاصراً على إصلاح المعتقدات الدينية الفاسدة فحسب، وإنَّما كان إصلاحاً لكل ملامح الحياة المنحرفة، فقد كان الإصلاح القرآني إصلاحاً للسلوك والتصور والاعتقاد والعادات والمعاملات.

لقد كان الإصلاح القرآني شاملاً للحياة الوثنية المنحرفة، حتى أنَّ رسول اللهﷺ كان يغيَّر أسماء الأشخاص والبلدان التي كانت لها علاقة بالوثنية

الجاهلية، ومن هذا القبيل أنَّهعليه السلام غير اسم (يثرب) إلى (المدينة) وسماها (طيبة) فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىرضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىﷺ قال: «مَنْ قَالَ لِلْمَدِينَةِ يَثْرِبُ فَلْيَقُلْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثَلَاثًا، هِيَ طِيبَةٌ هِيَ طِيبَةٌ هِيَ طِيبَةٌ» (٤٢). وفي رواية: «مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ، فَلْيَسْتَغْفِرْ إِلَى اللَّهِ ثَلاثًا، هِيَ طَيْبَةُ مَرَّتَيْنِ» (٤٣). ولعل سبب الكراهة يكون راجعاً إلى أنَّ (يثرب) مأخوذ من الثرب بالتحريك، وهو الفساد أو من التثريب، وهو المؤاخذة بالذنب.

وكان أهل الجاهلية كثيراً ما يسمون أبناءهم عبد العزى وعبد ومناف... وغير ذلك, فكان النبيﷺ يغيَّر هذه الأسماء إلى عبد الله وعبد الرحمن... وغير ذلك من الأسماء التي تعلن العبودية لله تعالى, ونبذ ما كان عليه أهل الجاهلية من الشرك والوثنية. ومن ذلك أنَّهعليه السلام غير اسم أبي بكر الصديقرضي الله عنه وكان اسمه في الجاهلية(عبد الكعبة) فسمّاه عبد الله. لأنَّ عبد الكعبة فيه إقرار بألوهية الكعبة، وهذا يتنافى مع التوحيد الذي يدعو إليه النَّبيﷺ.

وكما كان الإسلام حريصاً على تغيير معالم الجاهلية الوثنية، فقد كان حريصاً على تغيير معالم الجاهلية المترتبة على ضلالات أهل الكتاب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَرضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّﷺ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه» (٤٤).

ولما هاجر النَّبيﷺ إلى المدينة غيَّر الأعياد التي لها ارتباط بالجاهلية، فعَنْ أَنَسٍرضي الله عنه: أَنَّ الأَنْصَارَ كَانَ لَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا -فِي الْجَاهِلِيَّةِ- فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِﷺ قَالَ: «قَدْ أَبْدَلَكُمُ اللَّهُ يَوْمَيْنِ خَيْرًا مِنْهُمَا: الْفِطْرَ وَالأَضْحَى» (٤٥).

ولقد كان النَّبيﷺ حريصاً على أن يكون للأمة سمتها وهويتها، في كل شيء، ومن ذلك: أنَّه نهي المسلمين أن يقولوا في تحيتهم: عم صباحاً أو مساءاً، وأمرهم أن يحيوا بعضهم بالسلام، لأنَّه تحية الإسلام. فالمسلم مأمور أن يعيش في الكون، متميزاً بهويته الإسلامية، وبسماته الربانية، متميزاً في العبادات، متميزاً في العادات، متميزاً في السلوك، متميزاً في التصور والاعتقاد.

السمة الثانية: أنَّ الإصلاح في القرآن لم يهدف إلى القضاء على معالم الحياة قبل بعثة النبيﷺ بصفة عامة، وإنَّما كان يهدف فقط إلى تغيير المظاهر المنحرفة للحياة الجاهلية، وأما ما كان صحيحاً من عادات الناس وطبائعهم فقد أبقاه الإسلام، ورغَّب فيه، وحض عليه. ومن ذلك ثناء النبيﷺ على حلف الفضول الذي عُقد ليكون عوناً للضعف، ونصرة للمظلوم. أخرج البزار في مسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍرضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ « شَهِدْتُ حِلْفَ بَنِي

هَاشِمٍ، وَزَهْرَةَ وَتَيْمٍ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنِّي نَقَضْتُهُ وَلِيَ حُمْرُ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ الْيَوْمَ لأَجَبْتُ، عَلَى أَنْ نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ» (٤٦). وأخرج البيهقي عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :« لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوِ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ »(٤٧).

فالإصلاح في المفهوم القرأني لا يعني الثورة على الماضي بكل معالمه وأشكاله، وإنَّما يعني تغيير ملامح المجتمع المنحرف، والإبقاء على كل أشكال الحياة النيلة، واعتبارها من هدي الإسلام وتعاليمه. والأمثلة على ذلك عديدة من القرآن والسنة. أخرج البخاري عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ فَقَالَ: « كُنَّا نَرَى (نُرَى) أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة](٤٨)» وأخرج الحاكم –وصححه- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – فِي قَوْلِهِ تَعَالَى-: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ قَالَ: « كَانَتِ الشَّيَاطِينُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْزِفُ اللَّيْلَ أَجْمَعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَكَانَتْ فِيهَا آلِهَةٌ لَهُمْ أَصْنَامٌ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ نَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ فَإِنَّهُ شَيْءٌ كُنَّا نَصْنَعُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ يَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ وَلَكِنْ لَهُ أَجْرٌ» (٤٩).

ومما يؤكد أنَّ الإصلاح في المفهوم القرأني لا يعني الثورة على الماضي بكل معالمه وأشكاله أنَّ القرآن الكريم أثنى على أصحاب الصفات النبيلة قبل بعثة النبي ﷺ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:٧٥] ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] وقوله: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة]

وقد بلغ من أمر الإسلام في هذا الشأن أنَّ القرآن أمر بالوفاء بالعهود والمواثيق التي أُبرمتم في الجاهلية، ولم تخالف شرع الله. أورد ابن كثير "عن ابن عباسﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء] لما فتح رسول اللهﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة –وكان معه مفاتيح الكعبة- فلمَّا أتاه قال: أرني المفتاح، فأتاه به فلما بسط يده إليه قام العباس، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمع لي مع السقاية، فكف عثمان يده. فقال رسولﷺ: "أرني المفتاح يا عثمان" فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده. ثم قال رسولﷺ: "يا عثمان، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتني المفتاح" فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسولﷺ: ففتح باب الكعبة...ثم خرج رسولﷺ: فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين، ثم نزل عليه جبريل، فيما ذُكر لنا برد المفتاح، فدعا رسولﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴿٥٨﴾ ﴾ يقول الحافظ ابن كثير: وهذا من المشهورات أنَّ هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام"(٥٠) وأخرج الطبراني عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «خُذُوهَا يَا بني طَلْحَةَ خَالِدَةً تالدةً لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلا ظَالِمٌ (يَعْنِي حِجَابَةَ الْكَعْبَةِ)» (٥١).

السمة الثالثة: أنَّ الله تعالى إصلاح المجتمع مرهوناً بعمل البشر:

لقد شاء الله تعالى أن يجعل نهضة الأمة وصلاحها مرهونًا بمدى فاعليتها، وأن يجعل شأن الأمة الإسلامية ورفعتها مرهونًا بعمل أبنائها. فالإصلاح ليس مجرد شعارت أو كلمات، إنَّما هو رغبة حقيقية نحو الأفضل، وإرادة قوية تجاه التغيير، هذه الرغبة وتلك الإرادة يتبعها حركة متواصلة من العمل المستمر، فإنَّ لم تكن هناك إرادة حقيقية، وعمل مستمر فلن يكون هناك تغيير أو إصلاح.

فالأمة إذا أرادت لنفسها رفعة وعزة فعليها مواصلة العمل والجد لتغيير واقعها. يقول الشيخ محمد أبو زهرة –في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] "ولا يغير الله حال قوم أصابهم الضر والشر والخذلان والهزيمة أمام أعدائهم، إلا إذا غيروا حالهم من فساد إلى صلاح، ومن تخاذل نفس، وتفرق كيانى إلا إذا غيروا أنفسهم واجتمعوا على الحق، وتركوا التنابز والتدابر. وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بالجملة الاسمية، وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة؛ اسم الله العلىّ الأعلى القادر على كل شىء وبالغاية (حتى) فجعل تغير الحال الأليمة إلى حال صالحة راضية منتفية إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، أى إنَّهم يستمرون فى الآلام تنزل بهم إلى أن يغيروا أنفسهم"(٥٢). ولهذا فإنَّ الله تعالى عندما وعد المسلمين بالتمكين والاستخلاف في الأرض، اشترط لتحقيق هذا الوعدِ الرغبةَ الصادقة والعمل الجاد نحو التغيير والإصلاح، فقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥] ثم بينَّ سبحانه في آية أخرى الشروط التي بها يتحقق هذا النصر، فقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج:٤١]

فالتغيير والإصلاح دائماً يحتاج إلى الإرادة والحركة، ولا يحتاج إلى الشعارات، يحتاج إلى العمل الصالح، واستنفاذ الطاقات وشحذ الهمم. والنصر الحقيقي والتغيير والتبديل لا يتأتى إلا بالإيمان الصادق والصبر على الآلام والمشقة. وقد قرر الله تعالى هذه الحقيقة في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد] فقد اشترط سبحانه قبل تأييد العباد بالنصر سعي العباد إلى هذا النصر. وعندما أمر سبحانه الملائكة بمشاركة المؤمنين في الحرب والقتال، قال: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ لم يقل الله تعالى: قاتلوا عن الذين آمنوا، وإنَّما (فثبتوا) فالملائكة لا تقاتل عن المؤمنين، وإنَّما تقاتل مع المؤمنين.

فإذا تحققت الإرادة القوية للتغيير والإصلاح عند بني البشر، وقام الإنسان بما عليه من جهد، فإنَّ معية الله تعالى تصاحب بني الإنسان، ويؤيد الله تعالى عباده بالنصر. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت:٦٩]﴿ إِن يَنصُرْكُمُ

ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٠] وأما إذا تخاذل الناس، وكفوا عن العمل من أجل الإصلاح، فلا مناص عندئذ من الاستبدال الذي أشار إليه ربناﷻ بقوله:﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة:٥٤]

لقد اشترط القرآن الكريم الإيمان والحركة المستمرة والعمل الدائم كأدوات للإصلاح، وهذا قانون إلهي يسري على المؤمنين في كل مكان وزمان، وبدونهما لن يكون إصلاح أو تغيير. فإنَّ لم تتوفر الإرادة الحقيقية والتي تتجلى مظاهرها من خلال الحركة والفعل فلن يكون هناك إصلاح أو تغيير.

فهذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته النهائية -كما جاء به محمدﷺ- لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله، ولا يتحقق بكلمة (كن) الإلهية مباشرة لحظة تنزله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للنَّاس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي، على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، إنَّما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر؛ تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه بقدر طاقتها، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك، ثم لا تنتصر هذه الجماعة تارة وتنهزم تارة إلا بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة.

ولكن لا يعني كون هذا المنهج الإلهي متروكًا تحقيقه للجهد البشري استقلال الإنسان نهائيًا بهذا الأمر، وانقطاعه عن قدرة الله وتدبيره، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره، فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامي؛ لأنَّ إرادة الله هي الفاعلة في النهاية، وبدونها لا يبلغ الإنسان بذاته شيئًا، ولكنَّ هذه الإرادة تُعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها، ويجاهد في الله؛ ليبلغ رضاه، وقدر الله -مع ذلك كله- هو الذي يحيط بالناس والأحداث.

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الإصلاح عملية تتألف من أمرين، أمر يُسند الى الأنسان، وأمر يُسند إلى الرحمن، وعلى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نفسر التاريخ مرة على أنَّه من صنع الله، وأنَّ الهداية والضلال بيد الله، ومرة أخرى

على أنَّه من كسب البشر، ومن صنعهم وتغييرهم ويقظتهم. فارتفاع الأمم أو سقوطها إنَّما يرجع الى وعي البشر، وأخذهم بالسنن، فاذا غفلوا ولم ينتبهوا الى ذلك، فقانون الله واضح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] ولعلنا بذلك ندرك سر انهزام المسلمين في كثير من المواقع، وتخلفهم في كثير من الميادين، رغم وجود النية الحسنة، والعقيدة السليمة في كثير من الأحيان. إنَّ السر في ذلك راجع إلى عدم الأخذ بالأسباب، والسعي للإصلاح.

المبحث الرابع :ضوابط الإصلاح في ضوء القرآن الكريم

إنَّ إصلاح المجتمعات لا يسير بحركة عابثة، وإنَّما يسير وفق قانون وسنة تضبط حركة هذا الإصلاح. ومن ثمَّ فقد وضع القرآن الضوابط التي تضبط هذه الحركة.

وعندما نستعرض آيات القرآن الكريم في هذا الشأن، فإنَّنا نلحظ أنَّ ضوابط الإصلاح في القرآن الكريم -على كثرتها وتعددها- ترجع إلى خمسة ضوابط.

الضابط الأول: أنَّ الإصلاح يكون من منطلق الإيمان.

الضابط الثاني: تحديد المرجعية.

الضابط الثالث: أنَّ الإصلاح يقوم على تحريم الفواحش.

الضابط الرابع: أنَّ الإصلاح يقوم على مراعاة المصالح العامة للناس.

الضابط الخامس: الموازنة بين المصالح والمفاسد.

فيجب أن يكون الهدف من الإصلاح موجهاً أولاً إلى رضا الله جل وعلا. ثم ينبغي ثانياً أن يكون وفق منهج الله ورسوله. ثم يجب ثالثاً أن يكون قائماً على التنزه عن الفواحش، مع مراعاة المصالح العامة للبشر، وموازنة الهدف الأساسي للإصلاح بين المصالح والمفاسد.

الضابط الأول: يجب أن يكون الإصلاح من منطلق الإيمان:

إنَّ مشكلة الأمة اليوم هي مشكلة فكرية وثقافية، فلقد تغيرت القيم والمفاهيم، واختلطت المشارب حتى فقد الكثير من أبناء الإسلام اليوم قدرتهم على التمييز، وأصبحوا ضحية للغزو الفكري الغربي تارة، وضحية للفكر

الجاهل الذي يغلق العقول والأفهام أمام حقيقة هذا الدين، وحقيقة هذا الإسلام تارة أخرى. نحن بحاجة اليوم إلى صفاء المشرب، ونقاء المنبع حتى تتضح لدينا القيم والمفاهيم الإسلامية الأصيلة.

لقد نزل القرآن على أمة كانت في ذيل الأمم، ثم سرعان ما أصبحت تقود البشرية، وذلك بعد أن رسخت قيم القرآن وأفكاره فيهم، فتغير حالهم وواقعهم؛ لذلك نرى أنَّه من الضروري قبل أنَّ نفكر في أي تغيير أو إصلاح أن يكون ذلك على مستوى الأفراد، ثم الجماعات من منطلق الدين؛ ولهذا كان الأنبياء والمرسلون عليهم السلام يعلنون أنَّ الإيمان بالله سبحانه هو الأساس الذي تقوم عليه دعوتهم الإصلاحية. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٩٥] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣] ويبرز هذا المعنى في قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤] وقد جمع سبحانه ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]

ولقد واجه النبي ﷺ أوضاعًا سياسيةً واقتصادية واجتماعية فاسدةً، وكان بإمكانه ﷺ أن يرفع راية القومية العربية، أو أن يُشعلها ثورة إصلاحية، لكنَّه عليه السلام أعلن منذ البداية أنَّ الإيمان الصحيح، والعقيدة السليمة هما طريقا الإصلاح وسبيل التغيير.

لقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم، ليوافقوه على دينه، وأن يسجد لآلهتهم، ليسجدوا لإلهه، كأنَّ ذلك يمكن أن يكون، وكأنَّ الشرك والإسلام يجتمعان في قلب، وكأنَّ العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه. وهذا أمر لا يكون أبدًا. فالله أغنى الشركاء عن الشرك. وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية، ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره، ولهذا كان رد القرآن حازمًا على هذه الدعوى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون] نزلت هذه السورة، بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار، لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفَّرق نهائيًا بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل

المساومة والجدل في قليل أو كثير. وعندما عرض المشركين على النبيﷺ الملك، المال، والجاه والسيادة، والشهوات؛ ليكف عما يدعو إليه، رد النبيﷺ بقوله: « ما بي ما تَقُولُون، ما جِئْتُكُم بما جِئْتُكُم بِه أَطْلُب أَمْوَالكُم، ولا الشَّرف فيكم، ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُم رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عليَّ كِتابًا، وأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُم بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالاتِ ربي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فإِنْ تَقْبَلُوا مِنّي ما جِئْتُكُم بِه فَهُوَ حَظُّكُم في الدُّنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوا عليّ أَصْبِر لأمْرِ الله، حتّى يَحْكُم الله بَيْنِي وَ بَيْنَكُم» (٥٣).

لقد كان بإمكان النبيﷺ أن يرضى بالزعامة والملك، ويتخذ من ذلك وسيلة لنشر دعوته، ولكنَّهﷺ لم يفعل؛ لأنَّ ذلك ينافي مبادئ الدين الذي جاء به، والدعوة التي أُمر بها. والغاية في الإسلام لا تبرر الوسائل، فليس للغاية النظيفة إلا وسيلة نظيفة، وليس للمؤمن أن يسلك في الغاية التي شرعها الله تعالى إلا الطرق الذي ارتضاها الله. والسياسة الشرعية معتبرة، ولكن في حدود الوسائل المشروعة. وبهذا يكون النبيﷺ قد أعلن عن طبيعة دعوته، فهي دعوة ربانية في المقام الأول، الإيمان أساسها، والأخلاق عمادها، والصبر طريقها.

أثر المنطلق الإيماني على الصحابةؓ:

لقد كان المنطلق الأيماني هو البلسم الذي يخفف عن الصحابةؓ آلامهم وأحزانهم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء] كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يصيبهم، فأنتم وإياهم سواء في ذلك، ولكنَّكم مؤمنون، ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها.

كما كان المنطلق الإيماني عاملاً مهماً لامتثال الصحابةؓ أحكام الشرع وأمور الدين، والنماذج على ذلك عديدة في القرآن والسنة، أكتفي من ذلك بمثالين:

المثال الأول: أخرج الإمام مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة] قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَىْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ؛ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟! بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِى إِثْرِهَا﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[البقرة] فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ نَعَمْ ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] قَالَ: نَعَمْ» (٥٤).

المثال الثاني: تحريم الخمر:

فالعرب كانوا يشربون الخمر كما يشربون الماء، وكان يصعب على الكثير منهم تركها، فاتخذ القرآن الكريم لتحريم الخمر خطوات إيمانية، جعلت الصحابة ﷺ يقلعون عن شربها كلية، وذلك أنَّ الله تعالى أنظارهم لفت أولاً إلى **أنَّ الخمر تشتمل على السكر والرزق الحسن، فقال سبحانه:** ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ **[النحل] ثم بينَّ تعالى أنَّ في الخمر أثماً ومنافعاً، لكنَّ أثمها أكثر من منافعها، فقال تعالى:** ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] ثم نهاهم عن شرب الخمر عند الصلاة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] **وبذلك علموا أنَّ الخمر تتنافي مع الإيمان والعقيدة، وعندئذ صدر الأمر الإلهي بتحريم الخمر، فأعرضوا عن شربها، وتركوها كلية. فقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ

رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة]

أخرج الإمام البخاري عَنْ أَنَسٍ ﷺ قال: «كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي أَلاَ إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ، وَهْيَ فِي بُطُونِهِم. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة] الآية» (٥٥). وفي رواية الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: « كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، وَسُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ، وَنَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَ أَبِي طَلْحَةَ، وَأَنَا أَسْقِيهِمْ، حَتَّى كَادَ الشَّرَابُ أَنْ يَأْخُذَ فِيهِمْ، فَأَتَى آتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: أَوَمَا شَعَرْتُمْ أَنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ؟ فَمَا قَالُوا: حَتَّى نَنْظُرَ وَنَسْأَلَ. فَقَالُوا: يَا أَنَسُ، أَكْفِئْ مَا بَقِيَ فِي إِنَائِكَ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا عَادُوا فِيهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا التَّمْرُ وَالْبُسْرُ، وَهِيَ خَمْرُهُمْ» (٥٦).

الضابط الثاني: تحديد المرجعية:

لا شك أنَّه عندما تكون هناك دعوة لإصلاح المجتمع، فإنَّ الآراء تختلف، والأفكار تتعدد، وذلك لاختلاف الناس في العقول والتفكير، ومن ثمَّ كان لازاماً على دعاة التغيير والإصلاح تحديد المرجعية التي يجتمعون عليها، والتي تكون فصلاً عند الخلاف، وحكمًا عند النزاع. وهذه المرجعية تتمثل في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] فهذا أمر من اللهﷻ للمسلمين بأن يردوا كل شيء اختلفوا فيه إلى الكتاب والسنة. وقد جاء لفظ (شَيْءٍ) في الآية منكرًا للدلالة على العموم، أي: أنَّه يجب على المسلمين الرجوع إلى القرآن والسنة في كل أمور حياتهم - سياسية كانت أو اقتصادية أواجتماعية- فليس الرجوع إلى القرآن والسنة قاصرًا على العبادات فحسب -كما يحاول البعض الترويج لذلك- وإنَّما هو عام في كل أمور الحياة. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام] ولهذا جاء لفظ (شَيْءٍ) منكرًا أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠] كما جاء الأمر بطاعة الرسولﷺ بأسلوب

العمـوم فـي قولـه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحـشر:٧] فما حكم به كتاب الله وسنة رسولهﷺ وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قالﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا؛ كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(٥٧). والطريق إلى فهم كتاب الله وسنة النبيﷺ هو الصحابةﷺ لاسيما الخلفاء الراشدون، قالﷺ:«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ»(٥٨). ولهذا أثنى النبيﷺ على معاذﷺ عندما أرسله إلى اليمن. وقال له: «كَيْفَ تَقْضِى إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟» قَالَ: أَقْضِى بِكِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِى كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِﷺ قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِﷺ وَلاَ فِى كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِى وَلاَ آلُو. فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِﷺ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِى رَسُولَ اللَّهِ»(٥٩). ولمَّا بعث عمرﷺ شريحًا قاضيًا على الكوفة قال له: "انْظُرْ مَا تَبَيَّنَ لَكَ فِى كِتَابِ اللَّهِ، فَلاَ تَسْأَلَنَّ عَنْهُ أَحَدًا، وَمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ فِى كِتَابِ اللَّهِ، فَاتَّبِعْ فِيهِ السُّنَّةَ، وَمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ فِى السُّنَّةِ، فَاجْتَهِدْ فِيهِ رَأْيَكَ"(٦٠). وأما ما لم نجده في القرآن ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابةﷺ من النصوص المُتنازع فيها، فإنَّنا نرده إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته، وهذه المبادئ واضحة كل الوضوح، تغَّطي كل جوانب الحياة الأساسية، بما لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين.

الضابط الثالث: الإصلاح يقوم على تحريم الفواحش:

لقد كانت الفواحش في الجاهلية سلوكاً عادياً يمارسونه في حياتهم. وقد عبر جعفر بن أبي طالبﷺ عن ذلك عندما قال للنجاشي: «أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ؛ لِنَوْحِيدِهِ، وَلِنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَتْ أم سلمة: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا »(٦١).

ولقد عمل القرآن الكريم على أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً طاهراً عفيفاً خالياً من الفواحش، وسلك في ذلك مسلك التعميم والتخصيص، فنراه تارة ينهى عن الفواحش بمجملها، ونراه تارة يخص بالنهي والذم فواحش بعينها، فقال تعالى في ذم الفواحش جملة: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام:١٥١] ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف٣٣] وتوعد الذين يعملون على إشاعة الفاحشة في المجتمع، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور:١٩] وقال في ذم الزنا: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء] وقال في ذم اللوط ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف] وقال في ذم الخمر والميسر والأنصاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة]

ثم نراه يجمع بعض الفاحش، لذمها والنهي عنها في موضع واحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن الآيات الجامعة التي جاءت لتطهير المجتمع من الفواحش: قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء]

الضابط الرابع: الإصلاح يقوم على مراعاة المصالح العامة للناس(٦٢).

الذي يتأمل الشريعة الإسلامية يجد أنَّها جاءت-في جملتها- تساير مصالح النَّاس، وتقوم على رعايتها، وأنَّ رعاية المصالح العامة للناس سمة بارزة في مجالات التشريع الإسلامي في شتى المجالات؛ (الأحكام والأخلاق والعبادات والمعاملات)

فاما في جانب العبادات:

فإنَّنا عندما نتأمل النصوص الشرعية التي جاءت بالعبادات، فإنَّنا نلحظ أنَّ هذه النصوص تشير إلى أنَّ العبادات يراعى فيها مصالح الناس، وأنَّ كل عبادة يؤديها المسلم يعود نفعها على الفرد والمجتمع.

وقد يقف البعض بالعبادات على كونها وسيلة للتقرب إلى الله، فحسب، وهذا قصور في الفهم؛ لأنَّنا عندما نستعرض النصوص الشرعية التي تشتمل على العبادات، فإنَّنا نلحظ أنَّ العبادات وسيلة لتعميق الصلة بالله تعالى، والتقرب إليه من جانب، وهي –من جانب آخر- وسيلة لتحقيق مصالح الإنسان. فيجب أن تكون العبادات صادرة –أولاً-عن إخلاص لله وتجرد، ثم تؤَّثر –ثانياً- في القلب تأثيراً يدفع إلى العمل الصالح، ثم تبرز تلك العبادات – ثالثاً- في سلوك تصلح به حياة الناس.

كما يُلحظ كذلك: أنَّ النصوص الشرعية قد أشارت إلى أنَّ قبول العبادة وردها مرهون بالسلوكيات العامة التي تصاحب العبادة، ومدى تأثير هذه السلوكيات على الإنسان والمجتمع. وهذا المعنى ملحوظ في كل العبادات التي شرعها الله تعالى. فالصلاة التي هي عماد الإسلام وأساسه، جعلها سبحانه وسيلة لكف الناس عن الأضرار. قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت:٤٥] والفحشاء والمنكر ضرر يتعدى أذاه الناس. وقد اشترط الإسلام لقبول الصلاة أن يتسم مؤديها بحسن الخلق مع الناس. فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِي الله عَنْهُمَا- قَالَ: قال رَسُولﷺ: قال الله تبارك وتعالى: «إِنَّمَا أَتقبلُ

الصَلَاةَ مِمنْ تَواضعَ بِهَا لِعَظمَتِي، ولمْ يَستَطل عَلَى خَلقي، وَلَم يَبت مُصَراً عَلى مَعصيَتي، وَقَطَعَ نَهَاره في ذكري، ورحم المسكين، وَابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب»(٦٣) وفي رواية: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَتَعَاظَمْ عَلَى خَلْقِي، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَقَطَعَ نَهَارَهُ بِذِكْرِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى خَطِيئَتِهِ، يُطْعِمُ الْجَائِعَ، وَيَكْسُو الْعَارِي، يَرْحَمُ الضَّعِيفَ، وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ»(٦٤).

والزكاة في حقيقتها إحسان وبر وتعاون، والأساس فيها أن تؤلف القلوب، فإن ترتب على إخراجها انكسار لقلب الفقير، فلا خير فيها، وعندئذ يكون القول الطيب الذي يؤلف القلوب خير من الصدقة التي يصحبها التعالي والكبر. قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة] والصوم وسيلة إلي إتقاء ما يسيء به العبد إلي نفسه وإلي غيره، فإن لم لا يكف صاحبه عن إيذاء الناس يصبح يكون مشقة بلا أجر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(٦٥) وعنه أيضاً: قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ»(٦٦). ومن كمال الحج أن يتحلى مؤديه بالخلق الطيب تجاه الناس. قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقد يكتفي الإسلام من أتباعه بالعبادات القليلة التي يصاحبها سلوك بشري صحيح، ويرفض الأعمال الكثيرة التي لم تهذب سلوك صاحبها. أخرج الإمام أحمد والحاكم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ ذَكَرَ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي بِلِسَانِهَا قَالَ: فِي النَّارِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ ذَكَرَ مِنْ قِلَّةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا، وَأَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِأَثْوَارِ أَقِطٍ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ»(٦٧). بل إن الإسلام يرد العبادة التي لم تهذب خلق صاحبها، ولا يقبلها، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرْفَعُ صَلَاتُهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ شِبْرًا؛ رَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَأَخَوَانِ مُتَصَارِمَانِ»(٦٨). وقد يلقى الإنسان ربه يوم القيامة بوافر الحسنات وكثير الطاعات، فيجد هذه الطاعات، وتلك الحسنات هباء منثوراً؛ وذلك لأنَّ الأعمال التي قام بها لم تؤثر في سلوكه تجاه الناس. أخرج الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ

أُمَّتِى يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِى قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ»(٦٩).

لقد اعتبر الإسلام السلوكيات التي تصدر عن الإنسان علامات تدل على وجود الإيمان وتحققه، فإن وجدت هذه السلوكيات، فذلك دليل على ثبوت الإيمان في النفس، وإن لم توجد، فهذا دليل على انتفاء المعنى الكامل للإيمان. وقد جاءت النصوص الشرعية تترى على تأكيد هذا المعنى، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَنِ النَّبِيِّﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»(٧٠) وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍرضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّﷺ: « وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ »(٧١) وعن ابن عباسرضي الله عنه: قال رَسُولَ اللَّهِﷺ: « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ»(٧٢) وليس أدل على أمر هذه السلوكيات من أن الإسلام اعتبر إيذاء المسلمين صفة من صفات الفاسقين، وقتالهم علامة من علامات الكافرين، فعَنْ ابن مسعودرضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّﷺ قَالَ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(٧٣).

وأما في جانب الأحكام:

فإنَّنا عندما ننظر إلى أحكام التشريع الإسلامي، فإنَّنا نجدها جاءت-في جملتها- لتساير مصالح النَّاس العامة، وتقوم على رعايتها، رغم اختلاف الناس في أقاليمهم وأعرافهم وعاداتهم. يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "اعلم أنَّ الله سبحانه لم يشرع حكمًا من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة، أو عاجلة وآجلة، تفضلاً منه على عباده". ويقول الشيخ/ محمد عبد الله دراز – في شرح الموافقات للشاطبي-: "هذه الشريعة المعصومة ليست تكاليفها موضوعة –حيثما اتُفق- لمجرد إدخال الناس تحت سلطان الدين، بل وضعت لتحقيق مقاصد الشارع في قيام مصالحهم في الدين والدنيا"(٧٤).

وقد تتبع الفقهاء الأحكام فوجدوا أنَّها موضوعة لمصالح الناس، كما دل القرآن الكريم على ذلك. قال تعالى :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء] فالله سبحانه لم يرسل نبيهﷺ إلا ليرحم به عباده، وأساس الرحمة جلب المنفعة، ودفع المضرة، وهي دائرة حول ذلك لا تتعداه؛ ولذا فإنَّه قد

لُوحظ على أحكام التشريع الإسلامي اليسر والبساطة؛ كي لا يقع الناس في ضيق وحرج ومشقة. قال تعالي: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨]

وأما في جانب المعاملات:

فقد أشار القرآن الكريم –في غير موضع- أنَّ الهدف والحكمة من المعاملات تحقيق مصالح الناس؛ وذلك بجلب النفع والخير لهم، ودفع الضرر والمشقة عنهم؛ ولذلك حرَّمَ الفساد والغش والحيف والظلم، وأوجب أن تقوم حياة الناس على المساواة والعدل بين الأطراف.

وأما في جانب الأخلاق:

فإنَّ مصالح الناس تظهر بشكل قطعي في الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وحسن التعامل، والإحسان إلى الناس، وتجنب الإساءة إليهم ولو بالحركة والإشارة والكلمة واللسان، وبذلك تسود المودة ويكون الناس، كما صورهم رسول اللهﷺ بقوله: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(٧٥).

وقد عُني الفقهاء، وعلماء الأصول بيان أهمية ومعرفة مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد كان اعتبار المصلحة هو المشعل الذي أضاء السبيل لهم، فاستطاعوا أن يجتهدوا علي ضوئه، وأن يسيروا في التصرف علي مقتضاه، فقسموا هذه المقاصد إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الضروريات: وهي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا؛ بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا علي استقامة. وذلك يتعلق بأصول العبادات التي ترجع إلي حفظ الدين والنفس والمال والنسل والعقل.

القسم الثاني: الحاجيات: وهي التي يفتقر الناس إليها من حيث التوسعة، ودفع الضرر؛ وذلك كالرخص المخففة لبعض العبادات.

القسم الثالث: التحسينيات: وهي ترجع إلي مكارم الأخلاق التي هي دعامة الحياة الصالحة، ومنها الطهارة، وستر العورة، وأخذ الزينة، وتجنب الإسراف والإقتار.

وهذا ما ترجع إليه مقاصد الشريعة الإسلامية. وكلها أمور معقولة المعني لو خُلي العقل الكامل النزيه ونفسه قبل إطلاعه علي مشروعية الأحكام لوصل إلي معرفة الكثير منها، واهتدي إليها.

ومن ينظر إلى تشريع القرآن للأحكام يجد أنَّه كثيراً ما يسلك بها مسلك بيان الحكمة على النحو الذي يُطمئن النفوس بالأحكام، والذي يوسع الأفق؛ لاستخراج كثير من المجهولات. فآية تحريم الخمر والميسر –على سبيل المثال– تفيد أنَّ الخمر رجس من عمل الشيطان، ثم تنهي المؤمنين بعد ذلك عن شربها. وفي آية الصوم، وبعض أحكام الرخص يذكر الله سبحانه وتعالي أنَّه يريد بنا اليسر لا العسر. وفي آية الاستئذان قبل الدخول علي الأجانب يفيد قول الله تعالي أنَّ ذلك أزكي للناس وأطهر لقلوبهم. وأمر النبيﷺ بالاتجار في أموال اليتيم جاء معللاً بأنَّها إذا تُركت دون استغلال أكلتها الزكاة، وهكذا نجد جل الأحكام التي جاء بها التشريع الإسلامي مصحوبة ببيان الحكمة، ومشروطة بالمصالح، وفي ضوء ذلك التوجيه الحكيم يذهب المحققون من العلماء إلي أنَّ الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، وأنَّ العلة لابد أن تشتمل علي بيان المصلحة أو المفسدة التي تناسب شرع الأحكام أمراً أو نهياً أو إباحة.

مقولة: (حيثما وُجدت المصلحة فثم شرع الله)

وأما ما يتردد على كثير من الألسنة من عبارة: (حيثما وُجدت المصلحة فثم شرع الله) فليس معناه أن يُتلاعب بالدين باسم المصلحة، فهذه المقولة لا تُؤخذ على إطلاقها، وإنَّما تُقبل فيما لم يحكم فيه نص صحيح صريح، من الأمور المتغيرة المتجددة الحادثة، واجتهد من له الحق في الاجتهاد، فرأى أنَّ في ذلك مصلحة، وهذا هو مجال المصلحة التي عُرفت لدى الأصوليين بـ(المصلحة المرسلة) وهي التي لم يرد نص شرعي خاص باعتبارها ولا بإلغائها، فما نص الشرع على تحريمه فهو مفسدة لا مصلحة فيه بحال.

وقد اشترط الفقهاء للعمل بهذه المصلحة شروطاً، أولها وأهمها: ألا تعارض نصاً محكماً، ولا قاعدة قطعية، إضافة إلى كونها عامة، وألا تكون قائمة على الأغراض والأهواء، وإلا كانت مهدرة ملغاة. ومن هنا تكون المصلحة المصادمة للنصوص القرآنية، أو النبوية، ملغاة مهدرة؛ لأنَّ النص هو الواجب الاتباع، وهو المتعبد به. والواقع أن المصلحة المصادمة للنصوص لا تكون – عند التأمل العميق، والتحليل الدقيق– مصلحة حقيقية، بل هي مصلحة موهومة، زينها لصاحبها القصور، أو الغفلة أو الهوى، أو التقليد للآخرين.

الضابط الخامس: الموازنة بين المصالح والمفاسد:

الشريعة الإسلامية تقوم على تحصيل المصالح وتكميلها, وتعطيل المفاسد وتقليلها، ومن ثمَّ يجب على دعاة الإصلاح مراعاة الموازنة بين الصالح والفاسد. يقول ابن القيم رحمه الله: "والشريعة مبناها، وأساسها يقوم على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد, وهي عدل كلها, ورحمة كلها, ومصالح كلها, وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور, وعن الرحمة إلى ضدها, وعن المصلحة إلى المفسدة, وعن الحكمة إلى العبث, فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل"(٧٦). وينبغي أن يكون تحديد المصلحة من المنظور الشرعي لا المنظور العقلي المجرد, أو الهوى أو نحو ذلك. يقول الشاطبي: "ينبغي التنبه إلى أنَّ المراد بالمصالح والمفاسد ما كانت كذلك في حكم الشرع لا ما كان ملائماً ومنافراً للطبع, ولا يكون تقريرها وفق أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، ودرء مفاسدها العادية"(٧٧). والذي يحدد المصلحة هو العالم الشرعي المتصف بتقوى الله، ذو البصرة العلمية النافذة، الملم بالواقع واسع الإدراك؛ الذي يتمكن من تحقيق مقصود الشريعة. إذاً فأهل الفقه والنظر والعلم والدراية والخبرة هم الذين يحددون المصلحة، وذلك بعد الاستعانة بأهل الاختصاص -إذا كانت القضية أو المسألة تحتاج إلى متخصصين- وبناء على هذا فليس كل من سلك طريق الدعوة مؤهل لهذا النظر، ولا سيما في الحوادث الكبرى، والنوازل العظمى التي تعم الأمة بأكملها، والتي تتباين فيها الآراء، فيستعجل المستعجلون الذين يظنُّون أنَّهم على فقه ودراية، وربما لمزوا غيرهم من العلماء، وتعالت أصواتهم وأثرت على الناس، وما أن يمر وقت وإلا ويتبين لهم قبل غيرهم أنَّ نظر أهل العلم كان هو الحق والصواب، وما أوتوا هم إلا من قبل استعجالهم، وقلة نظرهم، وضعف تقديرهم للمصالح والمفاسد.

ضوابط الموازنة بين المصالح والمفاسد:

قد يجد الداعي إلى الإصلاح نفسه أمام أمرين مطلوبين، ولكنَّه لا يستطيع أن يقوم بهما معاً، وقد يجد نفسه بين أمرين فاسدين، لكنَّه لا يستطيع أن يزيلهما معاً، فيضطر إلى اختيار أحدهما. وهذا الاختيار يجب أن يكون وفق ضوابط, هي بمثابة قوانين يستنير بها الداعي في ترجيح حكم على آخر.

الضابط الأول: الأكثر مصلحة أولى بالتقديم من الأقل مصلحة:

فقد يجد الداعي إلى الإصلاح نفسه أمام أمرين كلاهم حسن؛ لكنَّه لا يستطيع أن يقوم بهما معاً، أو أن يدعو لهما معاً، فهنا يلزمه تقديم الأمر الأحسن، وترك الحسن. وليس معنى هذا أنَّ الأمر المتروك، ليس فيه مصلحة, كل ما هنالك أنَّ الداعي لم يتمكن من الجمع بينهما, فترك أحدهم مضطراً؛ لأنَّ

الشرع والعقل يحكم بلزوم الحفاظ على المصلحة العليا, ولو أدى إلى تفويت الأدنى. والمصلحة المفوتة في هذه الحال لم تعد مطلوبة, لذا فإنَّ تركها لأجل تحصيل المصلحة الراجحة, لا يُعتبر تركاً لمطلوب شرعي. فالتعارض بين المصالح يوجب الموازنة بينهما، فإن ثبت أنَّ إحداهما أهم من الأخرى لزم إهدار المهم محافظة على الأهم. يقول العز بن عبد السلام: "لا يُقَدِّم الصالح على الأصلح إلا جاهل بفضل الأصلح أو شقي متجاهل" (٧٨) ويقول ابن القيم: "وقاعدة الشرع تحصيل أعلى المصلحتين، وإن فات أدناهما" (٧٩) ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة] أخرج الإمام مسلم عن النُّعْمَانِ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: « كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: رَجُلٌ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً -بَعْدَ الإِسْلاَمِ- إِلاَّ أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ: آخَرُ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ -عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ- إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ، فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فيه. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا» (٨٠). ففي هذه الآية يبين الله تعالى أنَّ أعمال الحج من العمارة والسقاية والرفادة والسدانة, لا تساوي الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله؛ لأنَّ الإيمان بالله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته, أعظم درجة عند الله من أعمال الحج؛ وذلك بسبب كثرة منافعهما.

الضابط الثاني: الأكثر مفسدة أولى بالدرء من الأقل مفسدة:

وقد يجد الداعي إلى الإصلاح نفسه أمام أمرين كلاهم سيئ؛ لكنَّه لا يستطيع أن يدفهما معاً، أو أن يدعو لدفعهما معاً، فهنا يلزمه درئ الأسوء، وترك السيئ، وما ارتكبه من المفسدة يُعتبر مصلحة من حيث إنَّها تدفع مفسدة أكبر ما كانت تدفع لولا ارتكاب المفسدة الصغرى. ومن ذلك: قول الخضر:﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف] فدفع مفسدة غصب السفن بمفسدة أخف, وهي خرقها, واحتمل مفسدة قتل الولد؛ ليدفع مفسدة إرهاق والديه طغياناً وكفراً التي هي أعظم واشد من قتله.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

﴿ [الأنعام] قال ابن كثير – رحمه الله:-" يقول تعالى ناهياً لرسولهﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنَّه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين"(٨١). وقال ابن القيم :" فحَّرم الله تعالى سبَّ آلهة المشركين مع كون السب غيظاً, وحمية لله, وإهانة لآلهتهم؛ لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى, وكانت مصلحة ترك مسبتهم لله – تعالى– أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم"(٨٢).

وقد استخرج الفقهاء من هذه الآية وغيرها قاعدة شرعية، محصِّلتها: (إذا تعارض مفسدتان رُوعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمها إلا بفعل أدناهما, لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، حتى وإن سُمى هذا الفعل محرم، ويقال في مثل هذا: فعل محرَّم للمصلحة الراجحة أو للضرورة أو لدفع ما هو حرام"(٨٣).

الضابط الثالث: الجهة الغالبة أولى بالتقديم عند تزاحم المصالح مع المفاسد: فقد يجد الداعي إلى الإصلاح نفسه أمام أمر تزاحمت فيه المصالح مع المفاسد، فيكون الحكم حينئذ للجهة الغالبة؛ إما للمصلحة وإما للمفسدة, فإن كانت المفسدة أكبر درأناها, وإن كانت المصلحة أكبر جلبناها. ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى -في شأن الخمر والميسر-: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[البقرة:٢١٩] يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: "جميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم, قد تحصل لصاحبه به منافع ومقاصد, لمَّا لكن كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها, كما أنَّ كثيراً من الأمور؛ كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة, لكن لما كانت مصلحته راجحه على مفسدته أمر به الشارع. فهذا أصل يجب اعتباره"(٨٤).

ومن أبز الأمثلة على ذلك: امتناع النبيﷺ عن نقض بيت الله الحرام، وإعادة بنائه على أساس إبراهيمعليه السلام لأنَّ المصلحة في إعادة بنائه عارضها مفسدة أكبر، متمثلة في امتناع قبول بعض المسلمين ذلك لحداثة عهدهم بالكفر. ولذلك يقول النَّبِيَّﷺ لعَائِشَةَ رضي الله عنها: « لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ فِي الأَرْضِ»(٨٥). يقول ابن القيم رحمه الله: "لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام,

عزم على تغيير البيت, ورده على قواعد إبراهيم, ومنعه من ذلك –مع قدرته عليه– خشية وقوع ماهو أعظم منه مع عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام, وكونهم حديثي عهد بكفر"(٨٦). ويقول الشاطبي: "فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنَّما تُفهم على مقتضى ما غلب, فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عُرفاً, وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عُرفاً"(٨٧).

الضابط الرابع: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح:

إذا تساوت المصالح مع المفاسد, فإن تمكَّنا من تحصيل المصلحة ودرء المفسدة في آن واحد فحسن, وإن لم نتمكَّن من الجمع بين التحصيل والدرء, قدمنا دفع المفسدة على جلب المصلحة، ولو نجم عن ذلك الحرمان من المنافع عملا بالقاعدة الشرعية: (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) ومن الأمثلة التي ذكرها العلماء لهذه القاعدة: دفع الموت عن النفس بموت الغير, كأن يُهدد شخص بالقتل إن لم يقتل غيره, فهنا تساوت مصلحة الحفاظ على النفس مع مفسدة إزهاق نفس الغير, لكن بما أنَّ القتل مُجمع على تحريمه, والصبر مطلوب في حق من أُكره على ذلك, فإنَّ درء قتل الغير مقدم على درء قتل النفس.

وبناء على ما سبق: فعلى الدعاة إلى الإصلاح والتغيير التحلي بفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد؛ لأنَّ ذلك يجعل الداعية يحصِّل في دعوته مصالح عظيمة, ويدفع مفاسد كثيرة. وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية, والمفسدة الشرعية, فقد يدع واجبات, ويفعل محرمات, ويرى ذلك من الورع, كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة، ويرى ذلك ورعاً, ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور, ويرى ذلك من الورع(٨٨).

المبحث الخامس :منهج القرآن الكريم في الإصلاح

إنَّ تغيير المجتمع ليس بالأمر السهل، وهو –في الوقت ذاته– ليس من قبيل الترف الفكري، وإنَّما هو من الأعمال العظيمة التي لابد لإنجازها من توافر العوامل وتكاتف الجهود. وعندما ننظر إلى واقع الأمة العربية قبل البعثة النبوية وبعدها نجد أنَّ القران الكريم استطاع –في زمن وجيز– أن يُغُير في سلوكيات أفراد المجتمع وعاداتهم، وأن يغرس فيهم قيم الإسلام وتعاليمه. ويجزم علماء

السلوكيات والنفس والاجتماع استحالة إنجاز هذه التعديلات والتغييرات ورسوخها واستمرارها بدون منهج محكم يقوم على أسس متينة، وركائز قويمة. وهذا هو الواقع بالفعل، فعندما أراد الإسلام أن يُغَير المجتمع الجاهلي، ويقيم مقامه المجتمع الإسلامي سلك في تحقيق ذلك منهجاً متكاملاً منتظماً، وفق خطة دقيقة، متوافقة مع المنطق التغييري، وتقوم على المنهج الرباني، وذلك على النحو التالي:

أولاً: ترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس:

إنَّ العقيدة هي السلطان المهيمن على الفكر والسلوك، فإذا صلحت العقيدة صلح فكر الإنسان وسلوكه وعاداته وعباداته. ومن ثَّم فإنَّنا نلحظ أنَّ دعوات الأنبياء جميعاً قامت على أساس واحد ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ كما نلحظ –كذلك- أنَّ القرآن ركَّز في دعوته إلى الإصلاح على البدء بترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس. نلحظ ذلك في أول آيات القرآن نزولاً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق] فالبدأ باسم الرب، ونسبة الخلق إليه في أول آية زلت من القرآن إعلان عن العقيدة الصحيحة التي جاء بها القرآن، وتقرير للتوحيد الذي دعا إليه النبيﷺ؛ لأنَّها ناطقة بأنَّ الله تعالى وحده هو خالق الإنسان، فهو المستحق –إذاً- للعبودية دون غيره.

ثانياً: استخلاص القلوب لله تعالى:

إنَّ حمل الناس على الإصلاح لن يكون إلا باستخلاص القلوب لله تعالى، ولذلك فكثيراً ما نرى القرآن الكريم يعمل على تعميق حب الله تعالى في النفوس، وتقديم حبه تعالى على حب كل ما دونه، واستخلاص القلوب له سبحانه دون غيره. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢]

ثالثاً: ربط المجتمع -عقائدياً وسلوكياً وأخلاقياً- بالله تعالى: لم تكن دعوة القرآن إلى الإصلاح مقصورة -كما سبق بيانه- على تغيير العقائد المنحرفة فحسب، وإنَّما كانت دعوة إلى تغيير الواقع المنحرف للأمة في جميع نواحي الحياة. ولهذا فقد ربط القرآن الكريم المجتمع كله بالله تعالى والإيمان به؛ باعتبار أنَّ الإيمان عقيدة شاملة تستوجب يقين القلب، وإسلام الوجه لله، وإفراده تعالى بالعبادة والطاعة في كل شئون الحياة "فالتوحيد ليس قضية كلامية أو جدلية، إنَّما هو التزام شامل بدين الله تعالى في كل نواحي الحياة الإنسانية. ولذلك جعل الرسلُ جميعاً التوحيدَ مدخلهم إلى تغيير حياة أهل الجاهلية؛ وذلك لأنَّ التوحيد يعني رد الحكم والتشريع إلى الله تعالى -في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات- فإذا فعل الناس ذلك سهل عليهم تغيير ما هم عليه من فساد وضلال"(٨٩). ولهذا فإنَّنا نرى الأنبياء جميعاً يربطون دعوتهم الإصلاحية بالدعوة إلى التوحيد وتقوى الله تعالى. نرى هذا المعنى في قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ [هود:٨٤] كما نرى هذا المعنى كذلك في قول صالح عليه السلام: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء] حيث رتب عليه السلام النهي عن طاعة الزعماء الضالين على تقوى الله تعالى، وطاعته في الشرع الذي جاءهم به من عند الله تعالى. كما أنَّنا نجد هذا المعنى واضحاً في كثير من آيات العبادات والمعاملات، ومن ذلك قوله تعالى -بعد الحديث عن أحكام الصيام-: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ ﴾ [البقرة:١٨٧] وقوله تعالى -بعد أن بينَّ أحكام الطلاق-: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ ﴾ [البقرة:٢٢٩] وقوله تعالى: -تعقيباً على آيات الميراث:﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء:١٤]

رابعاً: تغيير مفهوم العقيدة والعبادة لدى أهل الجاهلية: فالعرب كانوا يعبدون الله تعالى بأهوائهم، فغيَّر القرآن هذا المفهوم، وبينَّ أن العبادة إنَّما تُأخذ بوحي الله تعالى. فعلى سبيل المثال كان العرب يعبدون الأصنام ويقولون:﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] فأنكر القرآن عليهم ذلك، وتوعَّدهم على هذا الفكر المعوج. قَالَ تَعَالَى:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] وكانوا يطوفون حول الكعبة عرايا ويقولون: لا نطيع الله في ثياب عصيناه فيها، فأمر الله تعالى بستر العورة في الصلاة، فقال

سبحانه ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ [الأعراف]

خامساً: ذم الأصنام والأوثان، وتسفيه عبادة الكفار: لقد بُعث النبيﷺ في أمة كانت تعبد الأصنام وتقدسها؛ ترجوا منها جلب النفع ودرء الضرر، فعمد القرآن الكريم إلى ذم هذه الأصنام، وتسفيه عقول عابديها، وذلك ملحوظ في آيات عديدة من آيات القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ ﴾ [النحل] ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ ﴾ [الرعد] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ ﴾ [النحل] ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ ﴾ [الأعراف]

خامساً: ذم العصبية الجاهلية:

لقد ركَّز الله تعالى في الفطرة الإنسانية قوة الغضب؛ ليدافع بها الإنسان عن نفسه، ويحفظ نوعه، ويستخدمها على وجهها في الحق والخير، حسبما شرع الله له، وهي حينئذ حمية محمودة. ولكنَّ هذه القوة الغضبية إذا ثارت، وخرجت عن حدودها أصبحت رزيلة مدمرة للفرد والمجتمع؛ لأنَّها بذلك تصبح صفة مدح وافتخار وأنفة عن الإذعان للحق، واعتزازاً بالإثم، الذي يصل إلى حد التناصر بالباطل، والتعاون على الإثم والعدوان. وقد كان ذلك فاشياً في الجزيرة العربية؛ وذلك لأنَّ مبدأ الجاهلية الذي كان يحكم علاقتها الاجتماعية هو قول قائلهم: "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" وكانت تقوم على ذلك عصبيات القبائل والشعوب، حتى بلغ الحمق حداً يقول فيه أحد أتباع مسلمية الكذاب: إنِّي أعلم أنَّه لكاذب، ولكنَّ كذَّاب ربيعة خير من صادق مضر؛ يعني رسول اللهﷺ(٩٠).

لقد كانت العصبية الجاهلية داء عضالاً في الجزيرة العربية، وعائقاً شديداً للإصلاح، ولذلك فقد كان من وسائل القرآن الكريم ومنهجه في الإصلاح ذم العصبية الجاهلية، وقتلها في نفوس الصحابة‬ﷺ حتى سلمت القلوب لله،

واستجابت لشرعه سبحانه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في ثنايا الحديث على مجالات الإصلاح.

سادساً: الحث على ترك العادات الجاهلية، والتمسك بالقيم الإسلامية:

لم يقف القرآن في دعوته إلى الإصلاح على ذم الجاهلية المنحرفة، وإنَّما دعا الناس إلى ترك العادات الجاهلية، والتمسك بالقيم الإسلامية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب]

سابعاً: إحياء مظاهر الإسلام في العبادات والمعاملات:

وقد كان ذلك بعد أن ألف الناس الإسلام، ولفظوا الجاهلية، واقتنعت العقول بالإسلام، وتهيأت القلوب لاستقبال هديه، واستعدت الجوارح لتنفيذ أحكامه وشرائعة؛ ولذلك نجد أغلب التشريع الإسلامي كان في المدينة المنورة.

ثامناً: تطهير المجتمع من الفواحش:

وقد سبق الحديث على هذا العنصر، في ثنايا ذكر ضوابط الإصلاح.

تاسعاً: الحض على التمسك بالقيم والفضائل:

وكما حرص القرآن الكريم على تطهير المجتمع من الفواحش؛ فإنَّه حرص -كذلك- على تمسك المجتمع بالقيم والفضائل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء] وذكر القرآن من وصايا لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان]

عاشراً: التدرج:

لقد كان العرب عند نزول القرآن يعبدون الأصنام، ويشركون بالله تعالى، ويشربون الخمر، إلى غير ذلك من المنكرات. والنفس يشق عليها أن تترك ما تعودته مرة واحدة، ويصعب عليها الإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهي عنه؛ فالعقائد –حتى ولو كانت باطلة- والعادات –حتى ولو كانت مستهجنة- لها سلطانها على النفوس. والناس أسرى ما ألفوا، ونشأوا عليه، فلو طالبهم القرآن بالتخلي عما هم منغمسون عليه من كفر وجهل ومنكرات مرة واحدة لما استجاب له أحد؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأخذ الناس بالتدرج(٩١). ومثال ذلك تحريم الخمر: فالعرب كانوا يشربون الخمر كما يشربون الماء، فأشار القرآن إلى أنَّ في الخمر سكراً ورزقاً حسناً، ثم بينَّ سبحانه أنَّ الخمر فيه أثم ومنافع، ثم نهاهم عن شرب الخمر عند الصلاة، فعلموا أنَّ الخمر تتنافي مع الإيمان والعقيدة، فلما لفظته نفوسهم صدر الأمر بالتحريم كلية، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة] والصيام فُرض أولاً لمن شاء، ثم فرض على الوجوب. والصلاة كانت ركعتين بالغدو والآصال، ثم فُرضت خمساً في اليوم والليلة. وفي ذلك تقول أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الْحَلاَلُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لاَ تَزْنُوا لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا» (٩٢). وبذلك اندحرت الجاهلية، وزال سلطانها عن القلوب والنفوس، وسارع المؤمنون بالاستجابةِ لربهم.

ولن يتحقق الإصلاح في هذا العصر إلا بالطريقة ذاتها وبالمنهج نفسه، فالعلل والأمراض الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة- بل والمجتمع العالمي ككل- هي تقريباً ذات الأمراض والعلل التي واجهها الحبيب المصطفىﷺ في جزيرة العرب.

المبحث السادس :وسائل القرآن في الإصلاح

وكما سلك القرآن الكريم في الإصلاح منهجاً متكاملاً منتظماً، وفق خطة دقيقة منظمة، متوافقة مع المنطق التغييري، وتقوم على المنهج الرباني، فإنَّه اتخذ الوسائل الناجحة في تطبيق هذا المنهج. يقوم بعضها على الترغيب والترهيب وبعضها يقوم استخدام الأدلة المقنعة، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في الإصلاح والتغيير. والتي سوف أشير إليها في هذا المبحث إن شاء الله.

أولاً: الدعوة بالرفق واللين:

من وسائل القرآن في حمل النَّاس على الإصلاح: المخاطبة بالرفق واللين، والدعوة بالموعظة الحسنة. قال سبحانه لموسى وهارون عليهما-عندما أرسلهما إلى فرعون-: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] وأمر نبيه ﷺ بهذا الأمر، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهذا فقد كانت الدعوة بالرفق واللين أسلوب الأنبياء جميعاً، فهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود:٥٢] ويقول ثمود عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] ومن ثمَّ فإنَّنا نجد منهج النَّبي ﷺ الإصلاحي يقوم على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا المعنى بارز في شخصيته وسيرته ﷺ.

ثانياً: استخدام القصة:

فالنفس بطبيعتها تميل إلى سماع القصص، ومعرفة أخبار الناس؛ ولذلك كانت القصة إحدى وسائل القرآن المهمة في الإصلاح، فقد أشار القرآن من خلال القصص إلى عاقبة الكافرين الذين أصروا على الكفر والإلحاد. كما استخدم القرآن القصص في تمكين العظة والعبرة للمؤمنين. وكذلك استخدم القرآن القصص في تثبيت فؤاد النبي ﷺ والمؤمنين. وغرس الثقة في نصر الله تعالى، للمُضي في طريق الدعوة، والصبر على ما يلاقونه من أذى واضطهاد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف] وقال سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

ثالثاً: ضرب المثل:

النفس دائماً تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة؛ ولذلك استخدم القرآن الكريم الأمثال للناس؛ لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال. ومن الأمثال التي

استخدمها القرآن الكريم فيما نحن بصدده قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] فهذا التغيير من الطاعة إلى المعصية، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الصلاح إلى الفساد كان سبباً رئيساً في نزول العذاب على هذه القرية.

رابعاً: الترغيب والترهيب:

من وسائل الإسلام في الإصلاح: الترغيب في العمل الصالح، والترهيب من العمل السيئ. والترغيب والترهيب منهج قرآني حكيم، وأسلوب تربوي كريم، وهو من أهم وسائل القرآن الكريم في الإصلاح.

ومما يلحظ أنَّ أسلوب الترغيب والترهيب جاء متنوعاً في القرآن الكريم، فتارة تجمع الآيات بين الترغيب والترهيب في موضع واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت:٤٦] ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف] وتارة تقتصر الآيات على الترهيب فقط. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد] وتارة تقتصر الآيات على الترغيب فقط، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء] ومن ذلك -أيضاً-: ما أخرجه الشيخان عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ:« أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»(٩٣).

وما يلحظ هنا إنَّ آيات الترهيب جاءت عامة، ولم يثتش منها أحد، حتى أنَّ القرآن الكريم استخدم هذا الأمر مع أسعد الخلق ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء]

خامساً: لفت الأنظار إلى السنن الكونية والإستفادة منها:

من الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في الإصلاح: لفت الأنظار إلى السنن الكونية، والإشارة الإستفادة منها. فالأيام دول، والحياة متغيرة؛ من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر، ولا شك أنَّ معرفة هذه السنة، والإيمان بها يدفع المؤمن إلى تغيير الواقع السيئ، فيسعى للنصر بعد الهزيمة، والرخاء بعد الشدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠]

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن هذه السنن فإنَّه يلفت أنظارنا إلى ارتباط المداولة بين الأمم والمجتمعات بالتغيير النفسي والذاتي في الأمة؛ فسقوط الحضارات ونهوضها، والأمم في ارتفاعها وهبوطها، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي سُنَّة ماضية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل. فالسنن لا تحيد ولا تميل مع الأماني، وإنَّما تتأثر بالأعمال الجيدة، والجهود المنظمة، والمخططات المحكمة؛ للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة. وفي هذا الصدد يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله: "فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه، إنَّما تنفذ على سنن حكمية وطرائق قويمة، فمن سار على سننه في الحرب مثلاً، ظفر -بمشيئة الله- وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكَّبها خسر وإن كان صِدِّيقًا أو نبيًا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد"(٩٤).

فلا يمكن أن يأتي النصر والصلاح بغير أسباب، سواءٌ تعلق الأمر بالمؤمنين أو بالكفارين. فاذا وافق المسلمون السنن الإلهية في التغيير، واستيفاء شروط النصر، فأخذوا بالأسباب، واستكملوا الإعداد للجهاد، وكان أعداؤهم أكثر كفاءة وقوة، فلا يضيرهم ذلك؛ لأنَّ سنة أخرى تتدخل، وهي وعد الله بالتمكين والنصر لعباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم] ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء] وقد يتأخر نصر الله ويبطؤ لحكمةٍ ما، لكنَّه في نهاية المطاف آتٍ لا محالة. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف:١١٠]

الخاتمة

- لا ينكر أحد أنَّ الأمة تعيش مرحلة حرجة من مراحل حياتها.

- وأنَّ الفساد والانحراف قد تغلغل في جميع مناحي الحياة.
- وأنَّ الأمراض التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة هي ذات الأمراض التي واجهها الحبيب المصطفىﷺ في جزيرة العرب.
- وأنَّ الأمة اليوم في أمس الحاجة الى أن تُغَير ملامح المجتمع الفاسد الذي تحياه.
- ولن تعودة الأمة إلى مجدها وعزها إلا بالسعي إلى تغيير الواقع المنحرف.
- وبدون السعي للتغيير لن يكون هناك إصلاح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

إنَّ الإصلاح في المجتمعات لا يسير بحركة عابثة، وإنَّما يسير وفق قانون وسنة تضبط هذه الحركة. وقد فسر القرآن الكريم حركة التغيير والإصلاح في حياة البشر، ووضع الضوابط التي تضبط هذه الحركة. وقد جاء الحديث عن الإصلاح في القرآن متعدداً، وتناولت الآيات القرآنية الإصلاح من جميع أبعاده، وعلى جميع الأصعدة؛ الفردية والإجتماعية، وفي مختلف المجالات. كما سلك القرآن الكريم في الإصلاح منهجاً متكاملاً منتظماً، وفق خطة دقيقة منظمة، متوافقة مع المنطق التغييري، وتقوم على المنهج الرباني، واتخذ الوسائل الناجحة في تطبيق هذا المنهج.

فسبيل الإصلاح المنشود هو القرآن الكريم.

ولن يتحقق الإصلاح في هذا العصر إلا عن طريق القرآن والسنة.

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المراجع

التفسير وعلوم القرآن

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لشهاب الدين أحمد بن محمد عبد الغني الدمياطي١/٢٢٩.

٢- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي. دار الفكر. بيروت. ١٤٢٠هـ

٣- تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) للحافظ ابن كثير. دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية.١٤٢٠ه

٤- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٥- تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل) لجار الله الزمخشري. دار الكتاب العربي. بيروت.١٤٠٧ه

٦- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي) دار عالم الكتب. الرياض.١٤٢٣ه

٧- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري) دار هجر. الطبعة الأولى.

٨- التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي. دار المعرفة.

٩- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي. دار هجر. مصر١٤٢٤ ه

١٠- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي. دار الكتب العلمية بيروت.١٤١٥ ه

١١- زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة. دار الفكر العربي.

١٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير للشوكاني. دار الحديث.

١٣- المدخل إلى التفسير الموضوعي للأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر الإسلامية. مصر. الطبعة الثانية ١٤١١هـ ١٩٩١م

١٤- المدخل لدراسة القرآن الكريم للشيخ/ محمد إبي شهبة. مكتبة السنة. القاهرة.١٤٢٣ه

١٥- المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد. دار الطباعة والنشر الإسلامية. القاهرة.

١٦- النبأ العظيم للدكتور/ محمد عبد الله درا.

الحديث وعلوم القرآن

١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني الناشر. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعةالرابعة١٤٠٥.

٢- سنن ابن ماجه. دار اليان للتراث.

٣- سنن أبي داود دار الكتاب العربي. بيروت.

٤- سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٥- السنن الكبرى للبيهقي. مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد الطبعة الأولى ـ ١٣٤٤هـ

٦- السنن الكبرى النسائي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٧- صحيح ابن حبان. مؤسسة الرسالة.

٨- صحيح البخاري الجامع الصحيح للإمام البخاري. دار الشعب. القاهرة. الطبعة الأولى.١٤٠٧ه

٩- صحيح الإمام مسلم. الجامع الصحيح. دار الجيل. بيروت.

١٠- العرش وما رُوِي فيه لابن أبي شيبة العبسي. مكتبة الرشد، الرياض.
١١- المستدرك على الصحيحن للحاكم النيسابوري. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١١ه
١٢- مسند أبي يعلي. دار المأمون للتراث. دمشق.١٤٠٤ه
١٣- مسند الإمام أحمد. عالم الكتاب. بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩ه
١٤- مسند البزار. مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة. الطبعة الأولى.
١٥- مصنف عبد الرزاق. المكتب الإسلامي. بيروت الطبعة الثانية١٤٠٣ه
١٦- المعجم الأوسط للطبراني. دار الحرمين. القاهرة. ١٤١٥ه
١٧- المعجم الكبير الطبراني.
١٨- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة للسخاوي. دار الكتاب العربي.

السير والشمائل

١- الروض الأنف في شرح غريب السير للسهيلي.
٢- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي.
٣- فضائل الصحابة للإمام أحمد. مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى١٤٠٣ه

الفقه وأصوله

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم.
٢- مجموع الفتاوى لابن تيميه. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى ١٤٠٨ه
٣- الموافقات للشاطبي. دار ابن عفان. الطبعة الأولى ١٤١٧ه
٤- الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي شرح وتعليق الشيخ محمد عبدالله دراز. مكتبة الأسرة. مصر
٥- فقه المصالح والمفاسد من كتاب قواعد منهجية في الدعوة إلى الله للشيخ فالح بن محمد الصغير. شبكة السنة النبوية وعلومها. الشبكة العنكبوتيه http://www.alssunnah.com/main/articles.aspx?article_no=٤٧٦٤.

المعاجم واللغة

١- القاموس المحيط للفيروز آبادي.
٢- لسان العرب لابن منظور. دار صادر. بيروت.

الهوامش والإحالات

(١)لسان العرب لابن منظور٣/٤٢٢، القاموس المحيط للفيروز آبادي١/٢٩٣. مادة (صلح)

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للعلامة الألوسي٩/١٤٥.
(٣) والمراد: "الإهلاك العاجل الحالّ بهم في غير وقت حلول أمثاله، دون الإهلاك المكتوب على جميع الأمم، وهو فناء أمة، وقيام أخرى في مدد معلومة حسب سنن معلومة" التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور١١/٣٤٨.
(٤) المنار للشيخ محمد رشيد رضا١٢/١٥٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي٩/٢٩٤، المحرر الوجيز لابن عطية٤/٧٩.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الملاحم. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر٤/٢١٣ رقم ٤٣٣٨، والبيهقي في السنن الكبرى. كتاب آداب القاضي. باب ما يستدل به على أنَّ القضاء وسائر أعمال الولاه مما يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفايات١٠/٩٣ رقم٢٠٦٩١.
(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند١/٧ رقم ٢٩ وأبو داود في سننه. كتاب الديات. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر٤/٢١٤ رقم ٤٣٤٠ والترمذي. كتاب الفتن. باب نزول العذاب إذا لم يغير المنكر٤/٤٦٧ رقم٢١٦٨. واللفظ للترمذي. قال الترمذي "وهذا حديث صحيح"
(٨) أخرجه الإمام أحمد٣/٣٦٤ رقم١٩٢٥٠ وأبو داود في سننه. كتاب الملاحم. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر٤/٢١٤ رقم ٤٣٤٠ وابن ماجه كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/١٤٢ رقم٤٠٠٩ وابن حبان. ذكر استحقاق القوم الذين لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر عن قدرة منهم عليه عموم العقاب من الله جل و علا١/٥٣٦ رقم٣٠٠. قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"
(٩) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الشركة. باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه٣/١٨٢ رقم٢٤٩٣.
(١٠) أخرجه الإمام البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب قصة يأجوج ومأجوج٤/١٦٨ رقم٣٣٤٦.
(١١) أخرجه الإمام مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان١/٥٠ رقم١٨٦.
(١٢) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الجنائز. باب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ٢/١١٨ رقم١٣٥٨، والإمام مسلم. كتاب القدر. باب معنى كل مولود يولد على الفطرة٨/٥٢ رقم٦٩٢٩.
(١٣) الحديث: أخرجه الإمام البخاري باب الترغيب في النكاح رقم٥٠٦٣ عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ.
(١٤) الحديث: أخرجه الإمام مسلم كتاب القدر. باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل٨/٨١ رقم٧٠٧٨ عن أبي هريرة ﷺ.
(١٥) تفسير الرازي(مفاتيح الغيب)٢٩/٤٧٣.
(١٦) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)٨/٢٩.
(١٧) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الشهادات. باب الشَّهَادَةِ عَلَى الأَنْسَابِ وَالرَّضَاعِ الْمُسْتَفِيضِ وَالْمَوْتِ الْقَدِيمِ٣/٢٢٣ رقم٢٦٤٨.
(١٨) ينظر: تفسير ابن كثير٣/٤٠٧.

(١٩) صحيح مسلم. كتاب التفسير. باب في قوله: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ٨/٢٤٣ رقم٧٧٣٤.

(٢٠) صحيح البخاري. كتاب التفسير. سورة البقرة٣٢/٦ رقم٤٥١٢، صحيح مسلم. كتاب التفسير. باب في قوله: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ٨/٢٤٣ رقم٧٧٣٤. واللفظ للبخاري.

(٢١) ينظر: تفسير ابن كثير٤/١٥٠.

(٢٢) تفسير ابن كثير٣/٣٤٤.

(٢٣) سنن النسائي. باب ما يقضي به القاضي ويفتي به١٠/١١٦ رقم٢٠٨٤٧، سنن الترمذي. كتاب التفسير، سورة التوبة٥/٢٧٨ رقم٣٠٩٥.

(٢٤) المعجم الكبير للطبراني١٢/٧ رقم١٣٦٧٣.

(٢٥) النبأ العظيم للدكتور/ محمد عبد الله دراز ص٢١٧.

(٢٦) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة. الباب الأول. الجزأ الأول١/١٤٥، وذكره السيوطي في الدر المنثور٨/٦٢٧.

(٢٧) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان. باب المعاصي من أمر الجاهلية١/١٤ رقم ٣٠ ومسلم. كتاب الوصية. باب إطعام المملوك مما يأكله٥/٩٢ رقم٤٤٠٣ عن أبي زرﷺ.

(٢٨) صحيح مسلم. كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد٧/١٢٧ رقم٦٣٩٤.

(٢٩) أخرجه الإمام أحمد٤/١٠٨رقم ٣٩٨٥، صححه الشيخ أحمد شاكر.

(٣٠) أخرجه الإمام أحمد٥/١٣٥ رقم٢١٢٦٧ والترمذي. كتاب التفسير. (سورة النحل)٥/٢٩٩ رقم٣١٢٩ والحاكم في المستدرك. كتاب التفسير، (سورة النحل)٢/٣٩١ رقم٣٣٦٨ تعليق الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣١) تفسير ابن كثير٢/٢١٣، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي٤/٢٢٦.

(٣٢) صحيح البخاري. كتاب التفسير، سورة النساء٦/٥٥ رقم٤٥٧٩.

(٣٣) صحيح البخاري. كتاب التفسير، سورة النساء٦/٦٢ رقم٤٦٠٠.

(٣٤) صحيح مسلم. كتاب الحيض. باب جواز غسل الحائض رأس زوجها١/١٦٩ رقم٧٢٠.

(٣٥) صحيح البخاري. كتاب التفسير. سورة البقرة٦/٣٦ رقم٤٥٢٨. صحيح مسلم. كتاب باب جواز جماعه امرأته فِى قُبُلِهَا مِنْ قُدَّامِهَا وَمِنْ وَرَائِهَا مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِلدُّبُرِ٤/١٥٦ رقم٣٦٠٨.

(٣٦) صحيح البخاري. كتاب النكاح. باب من قال: لا نكاح إلا بولي٧/٢٠ رقم٥١٢٧.

(٣٧) أخرجه الإمام أحمد٣/٣٥٢ رقم١٤٨٤٠ والترمذي. كتاب الفرائض باب ميراث البنات٤/٤١٤ رقم٢٠٩٢ وابن ماجه في سننه. كتاب الفرائض. باب فرض الصلب٤/٢٣ رقم٢٧٢٠. والبيهقي في سننه. كتاب باب من قال بتوريث ذوي الأرحام٦/٢١٦ رقم١٢٥٨١. والحاكم في المستدرك. كتاب الفرائض.٤/٣٧٠ رقم٧٩٤٥. تعليق الحاكم: صحيح ولم يخرجاه.

(٣٨) أخرجه الإمام البخاري. كتاب البيوع. باب كسب الرجل، وعمله بيده٣/٧٤ رقم٢٠٧٢. عن المقدامﷺ.

(٣٩) صحيح البخاري. كتاب الزكاة. باب الاستعفاف عن المسألة٣/٦٩ رقم٢٠٥٠.

(٤٠) صحيح البخاري. كتاب الزكاة. باب الاستعفاف عن المسألة ٢/١٥٢ رقم١٤٧١.

(٤١) صحيح البخاري. كتاب ازكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى٢/١٣٩ رقم١٤٢٧.
(٤٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف. باب سكنى المدينة٩/٢٦٧ رقم١٧١٦٧ وأبو يعلي في المسند٣/٢٤٨ رقم١٦٨٨، أبو نعيم الأصفهاني في أخبار أصفهان١٠/٢١٤.
(٤٣) أخرجه أبو سعيد النجدي في فضائل المدينة. باب ما جاء في اسم المدينة١/٢٦.
(٤٤) أخرجه الإمام البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا)٤/٢٠٤ رقم٣٤٤٥.
(٤٥) أخرجه أبو يعلي في المسند٤/٥٨ رقم٣٨٢٠ والبيهقي في معرفة السنن والآثار. كتاب صلاة العيدين٥/٤٨ رقم١٨٧٧ تعليق حسن سليم على مسند أبي يعلي: "إسناده صحيح"
(٤٦) أخرجه البزار في مسنده٣/٢٣٥ رقم١٠٢٤.
(٤٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى. باب إعطاء الفيء على الديوان/٣٦٧ رقم١٣٤٦١.
(٤٨) أخرجه الإمام البخاري. كتاب التفسير. باب قَوْلِهِ: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)٦/٢٨ رقم٤٤٩٦.
(٤٩) أخرجه الحاكم في المستدرك. كتاب التفسير. من سورة البقرة٢/٢٩٨ رقم٣٠٧٣.
(٥٠) تفسير ابن كثير٢/٣٤٠.
(٥١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير٩/٣٢٨ رقم١١٠٧١، والبغوي في معجم الصحابة٢/١٥١ رقم١٢٢٨. يقول السخاوي: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث عبد الله بن المؤمل عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس مرفوعاً. وابن المؤمل وثقه ابن معين في رواية، وكذا ابن حبان -قال يخطئ- وضعفه آخرون. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة للسخاوي١/٣٢٠
(٥٢) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة١/٣٩١١.
(٥٣) سيرة ابن هشام٤/١٧٩، الروض الأنف في شرح غريب السير للسهيلي٢/٤٦، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي٢/٣٣٩.
(٥٤) صحيح مسلم. المقدمة. باب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾١/٨٠ رقم٣٤٤.
(٥٥) صحيح البخاري. كتاب الخصومات. باب الخمر في الطريق٣/١٧١ رقم٢٤٦٤.
(٥٦) مسند الإمام أحمد٢/٢٣٤ رقم١٢٨٦٩. تعليق شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"
(٥٧) أخرجه الحاكم. كتاب العلم١/١٧٧ رقم ٣١٨، والبيهقي. باب ما يقضي به القاضي ويفتي١٠/١١٤ رقم٢٠٨٣٣ عن ابن عباس. والحديث صححه الحاكم. قال الذهبي: "وأصله في الصحيح"

(٥٨) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: لزوم السنة ١٩٧٤/٤، والترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة٤٦٩/٤، وابن ماجة في المقدمة١٥/١عن العرباض بن سارية ﷺ. قال الترمذي: "حسن صحيح"

(٥٩) أخرجه أحمد ٢٣٦/٥ رقم٢٢١١٤، وأبو داود، كتاب: الأقضية. باب: اجتهاد الرأي في القضاء٣٣٠/٣ رقم٣٥٩٤، والترمذي. كتاب: الأحكام. باب القاضي كيف يقضي٦١٦/٣ رقم١٣٢٧، قال الشيخ/ أحمد شاكر - في تعليقه على المسند-: "إسناده حسن"

(٦٠) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى١١٠/١٠رقم ٢٠٩٩ عن الشعبي.

(٦١) أخرجه الإمام أحمد في المسند٢٠١/١ رقم١٧٤٠ وابن خزيمة في صحيحه١٣/٤ رقم٢٢٦٠عن أم سلمة رضي الله عنها. تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: "إسناده حسن"

(٦٢) وليس معنى ذلك أنَّ مصالح الناس الخاصة غير مراعاة؛ فإنَّ المصالح العامة كما هي معتبرة في التشريع الإسلامي، فكذلك المصالح الخاصة، فلا الإسلام لا يهمل الفرد لصالح الجماعة، ولا يهمل الجماعة لصالح الفرد.

(٦٣) أخرجه البزار في مسنده١٢٩/١١ رقم٤٨٥٥. ومداره على عَبد اللهِ بن واقد، لم يكن بالحافظ، لكن حَدَّثَ عَنْهُ جماعة كثيرة من أهل العلم، وقيل: كَان حافظاً متفقهاً بقول أبي حنيفة.

(٦٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية١٨/٤.

(٦٥) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به٣٣/٣ رقم١٩٠٣.

(٦٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند٣٧٣/٢ رقم٨٨٤٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث في الصيام٥٩١/٢. رقم١٦٩٠، والحاكم في المستدرك، كتاب الصوم٥٩٦/١ رقم١٥٧١، وقال: "صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه"

(٦٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند٢٧٢/٣ وابن حبان، باب ذكر الأخبار عما يجب على المرء من ترك الوقيعة في المسلمين٧٦/١٣ رقم٥٧٦٤، والحاكم في المستدرك. كتاب البر والصلة ١٨٣/٤ رقم ٧٣٠٤ والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٦٨) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب من أمَّ قوماً وهم له كارهون٣١١/١ رقم٩٧١.

(٦٩) أخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم١٨/٨ رقم٦٧٤٤.

(٧٠) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده٩/١ رقم١٠، والإمام مسلم في المقدمة، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل٤٨/١ رقم١٧١. واللفظ للبخاري.

(٧١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه١٢/٨ رقم ٦٠١٦.

(٧٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير٣٠٠/١٠ رقم١٢٥٧٣، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق١٠٧/١ رقم٣٤٧، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير٩٥٢/١ رقم٩٥١٣.

(٧٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر١/١٩ رقم٤٨، والإمام مسلم في المقدمة، باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر١/٥٧ رقم٢٣٠ واللفظ للبخاري.

(٧٤) الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، شرح وتعليق الشيخ محمد عبدالله دراز١/٥.

(٧٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم٨/٢٠رقم٦٧٥١. عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ.

(٧٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم٣/٣.

(٧٧) الموافقات للشاطبي٢/٣٧.

(٧٨) قواعد الأحكام١/١٧.

(٧٩) إعلام الموقعين٣/٢٧٩.

(٨٠) صحيح مسلم. كتاب الإمارة. باب الشهادة في سبيل الله٦/٢٦ رقم٤٩٧٩.

(٨١) تفسير ابن كثير٣/٣١٤.

(٨٢) مجموع الفتاوى لابن تيميه٢٠/٤٨.

(٨٣) مجموع الفتاوى٢٠/٥٧.

(٨٤) مجموع الفتاوى١/٢٦٥.

(٨٥) صحيح مسلم. كتاب الحج. باب نقض الكعبة وبنائها٤/٩٧ رقم٣٣٠٧.

(٨٦) إعلام الموقعين٧/٦،٣.

(٨٧) الموافقات٢/٢٦.

(٨٨) فقه المصالح والمفاسد من كتاب قواعد منهجية في الدعوة إلى الله للشيخ فالح بن محمد الصغير. شبكة السنة النبوية وعلومها. الشبكة العنكبوتيه http://www.alssunnah.com/main/articles.aspx?article_no=٤٧٦.

(٨٩) المدخل إلى التفسير الموضوعي د/ عبد الستار فتح الله سعيد ص١١٤ باختصار .

(٩٠) المنهاج القرآني في التشريع للدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد ص١٨٤باختصار.

(٩١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للشيخ/ محمد إبي شهبة ص٧٢ بتصرف.

(٩٢) صحيح البخاري٦/٢٢٨. كتاب فضائل القرآن. باب تأليف القرآن رقم٤٩٩٣.

(٩٣) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الصلاة. باب الصلاة كفارة١/١٤٠ رقم٥٢٦. والإمام مسلم. كتاب التوبة. باب قول الله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات)٨/١٠١ رقم٧١٧٧.

(٩٤) تفسير المنار١٠/٣٧.